مـا لا تـرونــه

WHAT YOU DO NOT SEE

روايــة للأستاذ / سليم عبد القادر

إهـــــداء :

إلي الآلاف من أبناء الشعب السوري الذين ذاقوا الويلات في أقبية السجون علي أيدي عصابات لم يكن لها رادع من ضمير أو قانون ولم تكن تحمل من الآدمية غير الشكل ... إلـي أولئك الذين أطلقوا صرخات ضجت لها أركان الكائنات وسمعها كل شيء .. كل شيء ... إلا الإنسان .

صرخة من صرخاتهم

سليم

أخيرًا وقع المحذور .. وبدأت المحنة ...

كان ذلك صباح الجمعة الرابع عشر من شهر نيسان عام ١٩٧٩ فبينما كانت الطبيعة تعلن عن محاسنها في يوم من أجمل أيام الربيع ، كانت المحنة تتقدم كالإعصار يكتسح كل شيء أمامه ... كان محمود جالسًا في حديقة المنزل ، يستمتع بجمال الحياة ، حين جاءه أخوه الصغير يحمل نبأ حل عليه كالصاعقة :

- ألم تعلم بالخبر ؟
- أي خبر ؟
- لقد داهموا بيت الغريب واحتلوه ..
- من ؟
- إنه صديق صاحبك أيمن ... ذو اللحية الطويلة السوداء .. الذي لا يتكلم غير اللغة الفصحى ... وزوجته بلغارية .

حاول أن يتذكر فلم يفلح ... قال :

- لم أعرفه ... لا أدري .. ربما كنت أعرفه .. ولكن ، من قال لك هذا ؟ وهل اعتقلوا الرجل أم لا ؟!
- لا أدري .. يقال إنه هرب ... ويقال بأنه أصيب واعتقل ..
- من يقول هذا ؟
- أهل الحي ...

أحس بسحابة من الكآبة تغشي روحه .. قد لا يكون معنيًا بالأمر مباشرة ... ولكنه ليس بعيدًا عنه بالمرة ....

وراح يذرع حديقة المنزل ذهابًا وعودة ، شارد اللب ذاهلاً عما حوله .. يفكر فيما يمكن أن تؤول إليه الأمور ... ولاح له المستقبل صعبًا غامضًا ... قطع عليه شروده صديق جاءه شاحب الوجه ، مرتجف الكلمات يقول :

- لقد اعتقل الأستاذ فاروق ، والأستاذ عبد الله ..!
- ماذا تقول ؟!

هز الصديق رأسه بانكسار ... تمتم متألمًا : إنهما من الكبار ...

" إنا لله وإنا إليه راجعون " .

عاد إلي صمته وذهوله ، ثم راح يفكر في اتجاهات شتى ... لقد مر بموقف شبيه بهذا قبل ستة أعوام ... لكن هذا أمر لا ينفي الصعوبة والإحساس بالمرارة ... وإذا كانت المحنة قدرًا لازمًا للدعوات وأصحابها ، كما كنا نقرأ مرة بعد مرة ، فإنها قدر موجع لا ريب ..

عند صلاة الجمعة قصد إلي جامع عباد الرحمن مارًا بالقرب من فرع أمن الدولة ... حاملاً في صدره الهم والترقب ... كان موضوع الخطبة عن المحنة .. عن حتميتها في طريق الدعوة ، وعن أجر الصبر لمن صبر عليها ... إنه كلام يهدئ الروح ويمنح بعض العزاء ، ولكن طعم المحنة لن يكون حلوًا أبدًا ... خرج الناس من الصلاة ، وأكثرهم من الشباب المؤمن المشتعل حماسة ، الأعزل الأيدي ... لقد رأي في أعينهم الإحساس بالألم والعجز .. كان الكلام يدور همهمةً بين مجموعة وأخري .. حول موضوع واحد : بدء الاعتقالات ..

في المساء ، بدت المدينة امرأة تحيك ثوب الحداد ... جاءه صديقه أبو اليسر يقول بثقة مُرّة :

ستكون هذه الموجة من الاعتقالات ضارية ، تستهدف تصفية العمل الإسلامي نهائيًا .. المؤامرة مطبوخة داخليًا وخارجيًا : داخليًا المجازر ، وخارجيًا التعتيم والصمت .

- والحل !؟ .
- كل شيء إلاّ السجن ! فهناك يصبح الموت أمنية .
- لم أكن أظن أن نشاطنا بهذه الخطورة ، إننا ندعو إلي الله بطريقة سلمية وبشكل شبه علني.
- هذا صحيح ، ولكننا في غابة .

أوشك الليل أن ينتصف ، والحديث يكرر نفسه ، والهموم هي الهموم ، والأفق أسود ، وهمَّ أبو اليسر بالانصراف ولكنه قال :

- أخشي إن بتَّ في بيتنا أن يُداهَم الليلة .
- أستبعد ذلك .

وذهب أبو اليسر إلي بيته ثم عاد بعد قليل :

- لقد وجدت الباب مقفلاً من الداخل ، لم أرد إزعاج أهلي فعدت لأنام عندكم .
- علي الرحب والسعة .

مضت ليلة مليئة بالوساوس والتوقعات . وفي الصباح اعتذر أبو اليسر عن تناول الفطور ، وهمّ بالذهاب إلي بيته ، ثم تردد :

- قلبي غير مطمئن ، أخشي أن يكونوا قد داهموا البيت .
- اتصل بالهاتف .
- ربما تكون الخطوط مراقبة ؟ .
- لا تخف .

اتصل أبو اليسر يقول :

- (ألو) .
- نعم ؟ .
- أبو اليسر موجود ؟.
- نعم .

وهمس لصديقه محمود : الصوت غريب !؟ وأردف علي الهاتف :

- أعطني إياه لو سمحت .
- ماذا تريد منه .
- مسألة بسيطة .
- من أنت ؟ .
- صديق .
- وما اسمك ؟ .

وبحث عن اسم مستعار ، ثم قال :

- عبد الجبار .
- ماذا تريد منه بالضبط ؟ .

وحين استولي عليه الريب أراد أن يحمسه ، فقال :

- من المتكلم !؟ أبوه .
- نعم .

أغلق أبو اليسر الهاتف وقال : لقد احتلّوا بيتنا .

توالت الاعتقالات بين صفوف أبناء الجماعة وأهليهم وأصبحت المدينة تنام وتصحو علي أخبار المخطوفين من بيوتهم ليلاً ، أو من أماكن عملهم نهارًا ... ما الذي يحدث يا إلهي !؟ . وقال محمود لمسئوله في الجماعة :

- ما أبعاد هذه المحنة !؟ .
- لا أحد يعلم إلا الله .
- كيف نتصرف ؟

سكت قليلاً ، ثم قال :

- لا أدري .
- لابد من موقف ! .
- ننتظر أوامر القيادة .

يا إلهي ... السجن يزحف نحونا جميعًا كأفعى جائعة . ابتسم أحد الأصدقاء وهو يصغي إلي حديث محمود ، ابتسامة يائسة وقال :

- عن أي موقف تتحدث !؟ .. القيادة نصفها في السجون ، والنصف الآخر غادر البلاد ! .
- ونحن !؟ .
- تحت رحمة الله .
- والحديث عن الاستعداد والتحدي ، و .... و ...

- الأمر كما تري ..
- والروايات الدامية عما يدور في السجون من تعذيب شيطاني ، وقلع أظافر ، وسلخ جلود ، وقتل ، وتنكيل بالرهائن ، أهي وهم أم حقيقو !؟ .
- لوي الصديق شفته السفلى ، وقلب راحتيه قائلاً : من يدري !؟ .. ولكنها حقيقة بالتأكيد .

سألته أمه وقد رأته دائم الشرود :

- ما الأمر !؟ .

أجابها :

- لا شيء ...
- ما علاقتك بما يجري ؟ ..
- لا علاقة لي بشيء ..
- وأصحابك ؟ لماذا يطاردون أو يسجنون ؟ .
- إنهم أعضاء في جماعة إسلامية ...
- وأنت ؟ .
- لا علاقة لي بشيء ...

لم تطمئن أم محمود لما سمعت إلا أنها لم تجد إلا الصمت والدعاء ..

بعد أربعة أيام ، وقف محمود مذهولاً ، وهو يستقبل شخصًا مجهولاً معلومًا .. كأنه لم يره قط ، وكأنه لا يعرف غيره ، وتبينه بعد لحظات إنه صديق أيمن شقيق أبي اليسر ... ولكن : أين اللحية الكثة ، واللباس الفضفاض !؟ لقد بدا أيمن شخصًا آخر ، بعدما حلق لحيته وشاربه ، وارتدي الجينز والنظارة الشمسية ، تعانقا بحرارة ، وقال أيمن ، خبرني عن أبي وأمي وإخوتي !؟ . صمت محمود ... ولكن أيمن قطع الصمت بقوله :

- أعرف أن الأخبار لا تسر ، ولكني أريد التفاصيل .
- أبوك وأخوك الكبير في السجن مع الرهائن ، وأخوك أبو اليسر نجا قدرًا ، وهو متوارٍ ، وبيتكم محتل ، ومن يطرق بابكم يعتقل حتى بائع الغاز أطلقوا عليه النار ولكنه نجا بأعجوبة .
- وأمي !؟ .
- ماذا تنتظر منها وقد فقدت كل شيء في ليلة واحدة ؟ كان الله في عونها .

وخيّم صمت حزين ، وكآبة قاسية ، وقال أيمن ساهمًا :

- أعرف ذلك كله قبل سماعه ، ولكنا لن نستسلم .
- أهلك يتعرضون لما لا يطيقون حمله ..! .
- إنه ذنب الطغاة ..
- الطغاة لا قلوب لهم ، ولا يخافون الله ..
- لذلك سنقاومهم
- والنهاية !؟ .
- إحدى الحسنيين ..
- إنني لا أفهم ما الذي يجري .. أنت – كما أعلم – مثلي ...

قاطعه أيمن بقوله : لقد قمنا بتشكيل جناح مسلح للجماعة .

- بمعرفة الجماعة وموافقتها !؟
- ليس تمامًا ...

عقدت المفاجأة لسان محمود ، فلم يجد كلامًا ، وأطلق زفرة مفعمة بالحيرة ، وعاد يسأل :

- لكن من أنتم ؟ كم عددكم !؟ ما أهدافكم !؟ .
- هناك نيّة في أن نتخذ اسمًا مناسبًا، عددنا حوالي العشرين ، سلاحنا بضعة مسدسات ، وما نغنمه من العدو ... هدفنا إقامة دولة الإسلام ، أو الشهادة في سبيل الله .

قال محمود أخشي أن نتورط جميعًا في عمل باهظ الثمن .

- المحنة سنة ثابتة في الدعوة .
- ولكن المطلوب أن نتحاشاها ما استطعنا ، ونسأل الله العافية ، فإن كتبت علينا قاومنا أو صبرنا ، حسب الظروف .
- نحن لم نسع إليها ... السلطة هي التي فرضت علينا المواجهة .. إنها تحارب الإسلام بشكل استفزازي .. وتابع قوله ، أليس الجهاد واجبًا !؟ .
- بلي ...
- ونحن بدأنا الجهاد ... بعد عدة عمليات ، سينقسم الجيش المسحوق بالتسلط .

ثم قال بلهجة حاسمة :
- إن الشهادة غايتنا ... يُغفر للشهيد عند أول قطرة تراق من دمه ، وتتلقاه في الجنة سبعون حورية ،ويشفّع بسبعين من أهله .

قال محمود بشرود :
- الشهادة أمنية عزيزة المنال ... أتمنّي لو متّ شهيدًا ... لكنني أفكر في الواقع .. في المجتمع .. في مستقبل الإسلام هنا ، في مستقبل البلد في صورتنا أمام الآخرين .. في عمل نستطيع تحمل تبعاته ، في نية حسنة وعمل بعيد عن الأخطاء .

رد أيمن بثقة :
- ليس هناك خيار آخر ... حين تتعرض الأكثرية للاضطهاد ، ويساق المجتمع المسلم ذليلاً مقهورًا في دروب الضياع والفجور ، ثم لا ينهض كله ، أو مجموعة منه ، للتصدي للظلم والقهر ، فإن هذا المجتمع يكون قد مات .. حتى لو بدت عليه ملامح الحياة الكاذبة ... وحينها لا يأسف المؤمن الحر علي حياة من هذا النوع ..

قال أيمن كلماته في ثقة وهم بالانصراف ... سأله محمود : هل اعتقلوا الغريب ؟
- تقصد أمين أصفر ؟!
- لم أكن أعرف اسمه .
- مستحيل أن يعتقلوه ... إنه رجل من طراز فريد ... وحتى لو تمكنوا منه ، فمن المستحيل أن يتم ذلك قبل أن يطيح بخمسين رجلاً منهم ، ولن يمسكوه إلا جثة هامدة ..

بعد أيام التقيا من جديد ، وبوجود أبي اليسر ... زكان لقاءً حارًا مؤثرًا بين أيمن وشقيقه أبي اليسر .. قال محمود :
- الوالدة تسألني عنكما باستمرار ... تريد أن تراكما .. قال أيمن : الأمر صعب جدًا في هذه الظروف ... وتابع : هناك نبأ عن استشهاد خمسة من الكبار تحت التعذيب .
- نعلم ذلك ..

وأردف أيمن :
- نحن قررنا توسيع العمل .. الأمر خرج من مرحلة القناعات ، ودخل مرحلة المواقف ... أنتم وباقي الشباب معرضون للتصفية الجسدية في أقبية السجون أو علي أعواد المشانق ، وأعتقد أن الموت في الساحة أشرف ، والسلطة ستضرب الجميع دون اهتمام بقناعتهم الفردية .

قال محمود :
- أخشي أن تكون معركة غير متكافئة ، ونتيجتها معروفة : مصائب ومآس وسجون .

أيمن : ولكن الله معنا .

وأخرج مسدسين صغيرين ، وضعهما علي المنضدة ، وقال :
- يستطيع كل منكما أن يأخذ مسدسًا يدافع به عن نفسه .

ابتسم محمود ، وقال : هل أواجه السلطة بهذه اللعبة !؟ أنا أسف ، ثم إني لست مطلوبًا ، كما أني لا أنوي زجّ أهلي مع الرهائن في السجن .

راحت الأيام تمضي كالكوابيس ... في كليوم عمليات ومطاردات ، واعتقالات ، ورهائن ، واحتلال بيوت ، وشباب تائه في دوامة لا يعرف كيف دخلها ، ولا كيف يخرج منها ... ولم تهدأ موجة الاعتقالات إلاّ بعد شهر من عنفوانها فتنفس الصعداء ، واستبشر خيرًا ، وراح يستعد لامتحاناته في كلية الهندسة .

كان يؤدي امتحان خواص المواد ، حينما اقترب منه ثلاثة رجال ، ظنهم في البدء من مراقبي الامتحان ، وأنهم يريدون غيره ، ولكن أحدهم قال وهو يمسكه من يده : تعال معنا .. وفاجأه الموقف ، ، فشلّ تفكيره ، وقال :
- لماذا !؟ .
- ولا كلمة .
- بغير سبب !؟ .
- قلت لك : ولا كلمة .
- لا بأس ، فهذه هي العادة دائمًا .

كان الطلاب والطالبات والمراقبون يشهدون الموقف بذهول وعجز ... لا أحد يرضيه ما يجري ، ولا أحد يستطيع الاعتراض ، وبدا أنه لا مكان هنا للحديث عن حرمة الجامعة أو التساؤل عن كرامة الإنسان . فيساحة الجامعة ربضت سيارة (الأمن) وفيها ثمانية مسلحين ، ما لبثت أن انطلقت بصيدها الثمين تسابق الريح صوب سجن أمن الدولة ، لم يبق في الدنيا شعور واحد لم يخالجه ، ولم ترتسم آثاره في ملامحه : الخوف من أناس لا يخافون الله ، الاضطراب أمام مشهد أمه وإخوته حين يصل إليهم الخبر ... اللجوء إلي الله ... وتشجع قليلاً فقال بصوت راعش :

- هكذا أنتم دائمًا ، تؤدون المهمة من غير تفكير ، ألا يحتمل أن يكون المعتقل بريئًا ، أتحسبون أنكم غير مسؤولين أمام الله !؟ .

ورد عليه صوت غليظ : اخرس يا كلب .

لاذ بالصمت ، وراح يقرأ آية الكرسي ، وسورة الإخلاص ، والمعوذتين ، والفاتحة ، ويبتهل إلي الله أن يساعده في محنته ، وألاّ يدعه يواجهها وحده .

انفتح باب السجن الأسود علي صالة صغيرة في قبو أسفل العمارة الجميلة ، القائمة أمام قصر المحافظ ، كانت هذه العمارة مدرسة ثانوية للبنات قبل أعوام قليلة ، ووجد أمامه رجالاً من عالم آخر : سحنات مقلوبة ، وعضلات مفتولة ، ودمامة مروعة ، وعيون تنضح جلافة وغباء ، هذا هو عالمك الجديد ، وهؤلاء هم فرسانه " شيخو " و " أبو قدور " و " إبراهيم " . وغيرهم ، إنهم نخبة مختارة بعناية فائقة من أشد الناس قسوة وشراسة ووضاعة ، هؤلاء الأوباش الذين لا نراهم في عالمنا الحقيقي ، هم سلاطين الظلام هنا !...

وجاء المصور فالتقط له بعض الصور (التذكارية) الأمامية والجانبية ، وقال مدير السجن ، وهو رجل أشيب أزرق العينين في الخمسين من عمره :

- اسمك !؟ .
- محمود ..
- محمود (ايش) !؟ .
- محمود نعيم .
- العمل ؟ .
- طالب .
- أين !؟ .
- في كلية الهندسة .

وصاح أحدهم : عاش بطل الكلية .

وقال مدير السجن : فتّشوه .

وفي لحظات ، جردوه من حزامه وساعته ونقوده ، وقال مدير السجن : خذوه .

في ممر ضيق يبتدئ من صالة الاستقبال الصغيرة ، عن يمينه ثلاث زنزانات ، وفي صدره زنزانة رابعة ، وعن يساره المطبخ وغرفة التحقيق ، دفع أبو قدور بمحمود إلي الزنزانة رقم ثلاثة ، فتح قفلاً صينيًا أصفر ضخمًا ، وبعده الباب ، وقال : ادخل ، وتبعه إبراهيم ببطانيتين منتنتين رماهما علي الأرض وأوصد الباب ، وهو يقول : الداخل مفقود ، والخارج مولود ... ولكنك لن تخرج من هنا إلاّ إلي القبر . ووجد نفسه في زنزانة عارية جرداء ، تتدلي من سقفها مواسير المجاري ، وبحث عن نافذة فسخرت منه الجدران ، وراح يذرع الزنزانة جيئة وذهابًا ، ولاح له طيف أمه حزينة باكية ، وصور أخوته وأصدقائه ساهمين محزونين مطرقين في حيرة ، وأطلق زفرات حادة ، وتلا آيات القرآن كثيرًا ، ودعا ربه بقلب كسير ، وجلس علي الأرض مكورًا علي نفسه ، والوساوس تعلك أعصابه . فتح الباب سجّان ، وقال : قم يا كلب .

ودفعه إلي قبو وقع نظره فيه علي السياط والعصى والخيزرانات والدولاب وعلبة الكهرباء ، والفلق ، وعلي لوحة صغيرة في الصدر كُتبت عليها الآية القرآنية : " وما ظلمناهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون " .

وفي القبو باب يقضي إلي قبو أصغر ، استقبله فيه رجلان وسيمان ممتلئان في الأربعين من عمرهما ، الأول : هو الرائد أليف رئيس قسم التحقيق ، والثاني : المحقق أبو مغير . قال الرائد أليف ، وهو يجلس علي طرف المنضدة الوحيدة هناك ، وفي يده الأولي سيكارة ، وفي الثانية سبحة يعابثها : أنت تعلم يا بني أننا لم نأت بك من الشارع اعتباطًا ، وإنما نتيجة اعتراف أصحابك في التنظيم ، ويجب أن تعلم بأن كل شيء أصبح واضحًا لدينا ، والأسرار مكشوفة ، فلا فائدة من الإنكار ، ولا مجال لإخفاء شيء . استجمع محمود ما تبقي من شجاعة ، وقال :

- أتسمح لي بكلمات قليلة !؟ .
- تكلم .
- أنا إنسان أعيش في وطني ، مخلصًا له ، من خلال التزامي بإسلامي ، لاعتقادي بأنه الخير لي وللناس ، ولذلك أدعو إلي الله بالحسنى ، وأري أن هذا من حقي كمواطن ، ومن واجبي كمسلم ... ومع هذا ، فقد اخترت دربي بنفسي ، وأنا مستعد للحوار مع أي شخص أو جهة حول ما أراه ، كما أني مستعد لتحمل اختياري .
- قال أبو مغير ، وهو يبتسم بمكر : والتنظيم !؟ ألا تحدثنا عنه !؟ .
- لا علاقة لي بأي تنظيم .
- لا فائدة من إنكار شيء ثابت .
- في حال ثبوته بالأدلة المنطقية ، فأنا مستعد لدفع الثمن .
- والجماعات الإسلامية ، ماذا تعرف عنها !.

- أسماءها فقط .
- والتظيمات المسلحة !؟ .
- لا أعرف عنها شيئًا .
- بل تعرف .

قطع الرائد أليف الحوار ، وقال ببرود محتدم :

- لا بأس ، خذ هذه الأوراق والقلم ، واكتب كل ما تعرفه من معلومات ، إن كنت حريصًا علي كرامتك وسلامتك وهندامك ، فنحن نحب أن نعاملك معاملة شباب ، معاملة راقية مهذبة .. وعندنا من الأساليب ما يكفي لانتزاع ما لديك من معلومات ، بطرق تعرفها أو سمعت بها .
- سيدي لعلها وشاية مغرض .
- إنه اعتراف يا (أفندي) ، لدينا أطنان من التقارير تأتينا يوميًا نمسح بها أحذيتنا قبل أن نقرأها ، أنتم الذين تدلون علي بعضكم البعض ، ثم صاح : إبراهيم .
- نعم يا سيدي .
- خذه .

وجلس في الزنزانة وحيدًا يفكر : ماذا أكتب !؟ من الذي اعترف علي !؟ ماذا يعرفون عني !؟ كيف أخرج من هذه الورطة !؟ ولكني لن اعترف بشيء ، ولن أذكر اسم أحد من إخواني ، حتى لو مزقوني إربًا . وأمسك الورقة والقلم وكتب :

اسمي محمود نعيم ، نشأت في بيئة محافظة ، لقنتني حب الدين ، وحضور دروس العلماء ، عرفت بالتدين ، ولم أنتسب إلي تنظيم من التنظيمات . بعد ربع ساعة من تسليم التقرير ، فتح الباب السجان " شيخو " وقال :

- تعالي يا حيوان .

وأوثق يديه من الخلف ، وضرب علي عينيه قناعًا جلديًا أسود ، ودفع به إلي قبو التحقيق ، وهناك رفع القناع ، فرأي شيخو وإبراهيم وأبا قدور ، يقفون علي شكل مثلث ، وكل شيء في وجوههم يؤذن بشر لا يطاق ، وخلف المنضدة جلس أبو مغير يقرأ التقرير ، ثم قال وهو يبتسم : إيه يا محمود ، أهذا كل ما عندك !؟ .

- لو كان عندي شيء آخر لقلته .

مزق أبو مغير التقرير ، باستهتار ، وراح يعبث بأوراق أمامه .. وصاح شيخو بغضب : اخلع .

- ماذا !؟ .
- ملابسك يا حيوان .
- لماذا !؟ .

وانهالت عليه الصفعات واللكمات والرفسات من كل جهة وفي كل مكان . وخلع ملابسه من فوق ، فصاح شيخو : البنطال .

- سيدي .
- ولا كلمة .. حيوان .

ومع الشتائم خلع البنطال ... أحس بإهانة كبيرة ، قال شيخو :

- يا سلام ! سهرتنا اليوم عامرة ... في الأرض يا ابن الكلب .

جلس علي الأرض مذعورًا مترقبًا ... لقد سمع الكثير عن وسائل التعذيب وقسوة الجلادين ، لكن الوضع الآن مختلف .. إنه وحده في المحرقة ... شُدَّ القناع علي عينيه فلم يعد يري شيئًا ووضعت قدماه في الفلق الذي أمسك بطرفيه إبراهيم وابو قدور ، وشدّا الحبل كأقسي ما يكون . وصاح شيخو هذا واحد ضعيف ..

أحس بأنه مقبل علي تجربة مجهولة ، وهمس في نفسه : لك الحمد يارب ، مادمت كتبت علي المحنة ، فألهمني الصبر ، إنك تعلم أنه يشرفني الامتحان في سبيلك . وبعد عشر عصي ، صاح شيخو : وهذا واحد وسط ، وعد عشرًا ، ثم صرخ : وهذا واحد قوي .

ما هذا !؟ إنه سيخ من نار ، يا إلهي .

وتوالي الضرب شديدًا سريعًا قاسيًا ، وصاح بصوت هامس : أحد ... أحد ...

واشتعل شيخو جنونًا ، واشتد الضرب ، فلم يعد أحد يعد ، مائة !؟ مائتان !؟ ثلاثمائة ؟ ومن يهمه العدد !؟ إنها معركة ، ولابد من منتصر ومنهزم فيها . وصرخ أبو مغير : حطموه ، واحذروا أن يموت . وتحول الهمس صراخًا : يا الله ، يارب ، أحد ، أحد ، وانقلب الصراخ إلي توسل أعمي : برئ ... والله العظيم برئ ... يارب ... يا سيدي ... أبوس أيديكم ... أبوس أرجلكم . ومع الضرب كان يسمع :

- اعترف .
- اعترف يا ابن الكلب .

- برئ يا ابن (الفاعلة) !؟ .
- يا مجرم .
- نهايتك هنا .
- أنتم تحت أقدامنا .

مضي ما يقرب من نصف الساعة ، ولم يتوقف التعذيب والجسم ما عاد يحتمل ، والاعتراف مصيبة ، والله لن يتخلي عنه ، ولكن إلي متى سيظل ثابتًا !؟ . وقال أبو مغير : كفي .

أحس بأنه خرج من جهنم ... تنفس الصعداء ... راح يلملم جراحه ، وصاحوا به : قم واركض .

- لا أستطيع الوقوف .
- قم يا (قوّاد) .

وتحت سيل من الرفسات والشتائم وقف يتمايل كالسكران .

- اقفز .

بدأ يقفز .

- اركض .
- لا أري شيئًا ، ارفعوا القناع عن عيني .

وبالضرب ، والرفس والشتائم ، اقتنع بأن لا جدوي من التلكؤ ، فراح يجري كالأعمى ، يدور حول القبو ، يرتطم بالكرسي طورًا ، وبالجدار حينًا ، وبالمنضدة ثالثة ، ويعرقله أحدهم مرة رابعة ، وسيل من الرفسات والشتائم والضحكات يطارده .

- اعترف يا حيوان .
- اعترف يا ابن الكلب .
- ستعترف اليوم أو غدًا .
- يا مجرم ... تريد عمل انقلاب ، وسروالك ملئ بالـ..(كذا) ...

وصاح متوسلاً :

- إكرامًا لله .
- أأنت تعرف الله يا مجرم .
- إكرامًا لمحمد .
- ليأت وليخلصك .
- إكرامًا للوطن .
- طظ في الوطن ، أتبيعنا وطنيات !؟ .
- إكرامًا للسيد الرئيس .
- سنعمل ونترك في أم الرئيس .
- اعترف .
- اعترف .
- اعترف .

وراحو يشتمون كل ما يعتبرونه مقدسًا لديه : الله ، محمد ، الأم ، الأخت ، الدين .. ربما كانوا لا يعنون ما يقولون .. لكنه الواجب . واعترضه إبراهيم ، فأوقفه ، وقال : دعوه يا جماعة إنه شاب مثقف ، محترم ، جامعي ، وسيعترف من أجل مصلحته .

- ولكني برئ .

حين فتح فاه ، كان إبراهيم قد بصق فيه وقال : ابلعها يا ابن (الفاعلة) .

يا إلهي إن هؤلاء الجهلة الأنذال يتقنون مهنتهم . بعد ربع ساعة .. قال شيخو : أعيدوه .

في الزنزانة رقم ٣ وقف يصلي صلوات طويلة ، ويدعو بقلب جريح وجسد منهك : يارب ، إنه عذاب لا يطاق ، علمك بحالي يغني عن سؤالي ، ليكن الموت ، أو الشلل ، أو الجنون ، أما هذا التنكيل .. فلا وراح يدعو دعاء النبي " اللهم إليك أشكو إليك ضعف قوتي ونفاد حيلتي وهواني علي الناس ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلي من تكلني ؟ إلي عدو سافل ملكته أمري ؟! إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن يحل عليّ غضبك ، أو ينزل بي سخطك ، لك العتبي حتى ترضي ، ولا حول ولا قوة إلاّ بك " . وبين الحين والآخر ، كان يطل عليه سجان من كوة صغيرة ، يتوعده ويتهدده .

- اعترف يا نذل .
- لست أبا قدور إن لم أكسر أسنانك وأنزع أظافرك .

- التحقيق لم يبدأ بعد ... هذه مداعبة ... ترحيب .
- أبشرك بأنك ستعيش مشلولاً .. كيف !؟ . غدًا تري .
- حبل المشنقة بانتظارك .
- اعترف يا ابن الحلال ، أنت إنسان مثقف .
- كل الذين سبقوك اعترفوا ، وأنت تمثل بطلاً ، وتعمل شريفًا .
- الليلة سأفعل بك ما يدعو للاعتراف . (.....) .
- لمصلحتك ، اعترف ، ولا تراوغ .
- يا ابن الكلب .

وقال في نفسه : أين أنا يا إلهي !؟ أمعقول أن يكون هذا الجحيم قطعة من وطني .. لم أكن أتخيل ذلك .. لا .. !؟ . هل هذه المخلوقات من سلالة آدم !؟ هل في الأرض قذارة كهذه !؟ ماذا صنعت لألقي كل هذا العذاب !؟ .. أستغفر الله . (واستسلم للنوم كالقتيل) .

تلقت أمه أسوأ نبأ في حياتها .. إنه نبأ اعتقاله .. لقد فقدت من قبل بعض الأبناء ... إن الموت أرحم ... الموت إرادة الله ، والسجن فعل الطغاة ... الموت ساعة جزع ، يتلقاها المؤمن بالرضا قنهون ... أما السجن فعذاب مستمر ، وقلق دائم ... لا أحد يجهل ، ولا أحد يعلم ، ما الذي يجري في السجون ... إلا الله . جلست ومن حولها أبناؤها الأربعة ، وبعض الأقارب تبكي حينًا ، وتتجلد أحيانًا ... تأتيها الأصوات :

- اصبري ... فالله موجود .
- محنة ، وتمر ..
- سيخرج قريبًا إن شاء الله ..

الآن تذكرت أبا محمود ... لقد مات من أشهر ... لقد راح واستراح ... أحست بحاجة إلي رجل تسند ظهرها إليه .. يشاركها في حمل المصاب ... ولكن .. حتى لو كان أبو محمودًا حيًا إلي جانبها ما الذي يمكن أن يتغير !؟ إنه رجل برته الأيام ، وهو صاحب قلب أرق وأرحم من قلب امرأة ... قامت أختها وأعدت الطعام ، لكن أحدًا لم يقترب منه ... قالت لها بتودد :

- يا أم محمود ... أنت امرأة مؤمنة بقضاء الله ... سلمي أمورك إلي الله ...
- لا إله إلا الله ..
- تناولي لقيمات ، حتى يقبل الأولاد علي الطعام ..
- لا أستطيع ... لا أستطيع ... تري ماذا يفعلون به !؟ .

وأجهشت بالبكاء .. وقالت بعدما هدأت :

- أخبروا أهل خطيبته بالأمر .

جلبة غير عادية حدثت في الصباح ، وأطل الرائد أليف من الكوة فوجد محمودًا مضطجعًا ينتفض وأثر النوم في عينيه ، فصاح :

- كيف تركتموه ينام !؟ من الذي تركه !؟ هاتوه ..

وهتف الشاب في سره .

- رحمتك يارب .. فإنهم لا يعرفون الرحمة .

وقال أليف :

- إيه يا محمود ، ماذا لديك !؟ .
- سيدي ...
- ألن تتكلم !؟ .
- لقد قلت كل أعرف .

فصاح بالجلادين : اسحقوا عظامه .

وانصرف ، وبدأت حفلة جديدة ... ساعة تحت التعذيب .. الأقدام تورمت حتى أوشكت أن تتشقق ، وتمزق الجلد فوق الكعبين بتأثير الحبل المشدود ، وسال الدم ، واختلط العرق بغبار الأحذية بالجسم المبتلي ، وامتزجت الاستغاثات بالضحك والشتيمة ، والضراعة بالسخرية ، والابتهال بالعربدة . وعاد أليف يقول :

- اعترف فلا مجال للإنكار .
- بماذا !؟ .
- بأنك من الجناح المسلح .
- أثبتوا ذلك وأعدموني .

- كلكم يقول ذلك ، وفي النهاية تعترفون .

وعادوا فألقوه في الزنزانة مثخن الجراح ...

.. ليس حولي غير جدران صم بكم عمي ... يا إلهي أكاد أُجن ... الظلام يبتلع كل شيء ... الوطن سجن كبير ، والعالم أكبر بكثير من أن يكترث بمأساة واحد مثلي ... وهنا ينطفئ الإنسان كشمعة ، ينتهي كعود ثقاب ، يُسحق مثل حشرة صغيرة .. هذا ظلم وكفر ... أنا أعرف ذلك ، وهم يعرفون ، والناس خارج هذا الجحيم يعرفون ... الرحمة يا إلهي ، الاعتراف صعب ، لن اعترف ... لن أنقذ نفسي وأفرّط بإخواني ، مستحيل أن أتي بالأبرياء إلي هذا المكان الجهنمي ... ولكني يا إلهي ... بدأت أخشي علي إيماني .

فتح مدير السجن أبو اصطيف الكوة وقال :

- النوم ممنوع . مفهوم **!؟** .
- حاضر يا سيدي .

وحال المساء والإرهاق والنعاس ، النوم ممنوع ، والمقاومة تضعف وتذبل ، والعزيمة تخور شيئًا فشيئًا . في منتصف الليل أطل سجان وقال :

- ما اسمك **!؟** .
- محمود .
- يا أخي ، لا مفر لك من الاعتراف ، وكل الذين سبقوك اعترفوا .
- لا علاقة لي بتنظيم .
- أنا أكلمك كأخ ، وليس كسجان ، أنا مجند ولا علاقة ليبما يجري ... علي كل حال ، لقد منعوك النوم ، أليس كذلك **!؟** .
- بلي .
- بإمكانك أن تنام ، وإياك أن تخبر أحدًا بذلك ، حتى لو سألوك .
- أمرك سيدي .
- لا تقل أمرك ، ولا سيدي ، فنحن إخوة .
- شكرًا .

وتبادلا بسمات الرضا والامتنان .

أهي مناورة أم عطف **!؟** ولو كانت مناورة ، فماذا سيكون ثمن النوم **!؟** . ونال منه الإعياء فسقط ، وما أحسّ إلاّ وهم يفتحون عليه الباب في الصباح ... تظاهر بأنه لم ينم ، وقال أليف في القبو :

- (قوّاد) ، ألن تعترف **!؟** .
- سيدي ، أقسم بالله العظيم ...

وفي لحظة واحدة ، كان ملقي علي الأرض مثل كيس نفايات ، وبدأ مهرجان جديد ، وصراخ ، وعويل وتوسل ، واستغاثة ، وابتهال ... دون جدوى .

يا إلهي ، أليس هنا إنسان **!؟** لم أعد أطيق الجراح علي الجراح ، والضرب علي جسد ممزق ، وقدمين لا تطيقان المشي .

- اعترف يا حيوان ، يا كلب ، يا قوّاد ، يا مجرم .
- بماذا **!؟** .
- بأنك من الجناح العسكري .
- كيف لا اعترف بشيء لا علاقة ليبه ؟
- اضربوه .
- أبوس أيديكم وأرجلكم ... حرام عليكم أن تورطوني ... أنا برئ .. برئ ... والله العظيم برئ .
- اضربوه بلا رحمة .

وصرخ في هلوسة وجنون :

- سيدي ، والله أنا أحب الأمن .

قهقه الجميع ، وتوقف " شيخو " عن الضرب قائلاً :

- ماذا قلت يا حيوان **!؟** .

ونزع بحذائه القناع من علي عيني محمود ، الذي أبصر الجلادين يتصببون عرقاً وغضبًا وحنقًا ، وشيخو يلهث تعبًا وإرهاقًا ، وأليف وأبو مغير وأبو اصطيف يكمّلون الدائرة الصغيرة الملتفة حوله ... وقال :

- أحب الأمن .
- أصادق أنت أم كاذب **!؟** كن رجلاً ، وإلا ... وعادوا يقهقهون ، فقال :

- أحبهم إن كانوا علي الحق .
- ونحن علي الباطل ، أليس كذلك يا قواد !؟ .

وبحذائه أعاد شيخو القناع إلي مكانه ، وغشيت الظلمة كل شيء ، وعاد الضرب شديدًا ، والشتائم والكفر والعربدة تمزق أذنيه وقلبه ، وامتلأ وجهه ببصاقهم ، وسال الدم من رأسه ، ولم يعد يبالي بأعقاب السجائر في أي مكان من جسمه تُطفأ ، ولم يعد يشعر بخزيمن عريه بينهم ، وتضاءل إحساسه بالحياة ، وانتهت رغبته في مقاومتهم ، وعاد كومة من جلد وعظم ، واستبشر بالموت القريب .

صرخ أليف :

- ماذا قلت !؟ .
- أريد أن أموت .
- ستموت ولكن بعد أن تعترف .
- ارحموني .
- ستظل في حال الشهوة إلي الموت .
- اقتلوني .
- في كل يوم ألف مرة ... أما أن تموت مرة واحدة ، فهذا لن يكون .
- لماذا !؟ .
- لأنك مجرم .
- أنا !؟ .
- بل نحن !؟ .
- قالوها بسخرية ، ثم بجد : نعم أنت يا ابن (الفاعلة) .
- أنا مواطن .
- أنت خائن .
- أنا إنسان .
- أنت حشرة صغيرة .
- لا يمكن أن يرضي السيد الرئيس بهذا !! .
- اخرس ، واحذر أن تردد اسمه الطاهر عليلسانك النجس مرة أخري .
- يا إلهي ...
- الله برئ من المجرمين .

توقف الكلام إلاّ عن الشتائم ، واستمر التعذيب حتى شعروا جميعًا بالإعياء والتعب .

راح يتأوه في الزنزانة وحيدًا ، يتفقد جروحه ، وقدميه وجسمُه ممزق بالعرق والأوساخ ، ورائحته نتنه ، وفتح الكوة عليه إبراهيم يقول :

- يا أخي أنت شاب مثقف ، واعٍ ، فلا تضيع مستقبلك وتهدر شبابك من أجل أفكار خيالية وعمل فاشل ... اعترف ... اسمع نصيحتي .

ثم انصرف ، وقف يصلي ويطيل الركوع والسجود : يا إلهي ، أدركني ، ما عدت أطيق العذاب ، إنهم لا يجودون عليّ بالموت ، ولا يفهمون لغة الإنسان ... وارتمي عليالأرض بين الوعي والإغماء . لم يمض علي خروجه من قبو التحقيق ساعتان ، حتى عاد شيخو يصرخ به :

- تعال ... حيوان ، لي معك حساب .

وفي القبو قال له : ادخل في الدولاب .

جلس في الدولاب (إطار عجلة سيارة) ، رأسه وقدماه من جهة ، ومؤخرته من جهة أخري ، وبحركة من شيخو ، أصبح رأسه في الأرض ، وقدماه في الأعلى ، وانهال عليه ضربًا وسبًا حتى أدركه التعب .. وبعد ما قضيشهوته من التعذيب أعاده إلي الزنزانة .

آه ... آه ... عذاب فوق العذاب ... لم أعد احتمل .. يارب .. لمن أدعو سواك !؟ اليأس بدأ ينخر في عظامي ، وبتُّ أخشي الفتنة في ديني ... أستغفر الله ... أستغفر الله ... تذكر قصص عمار وبلال وخباب ... ولكن هذا التعذيب لا يطاق ... أين الموت !؟ أين الموت !؟ ساعدني يا إلهي . أنا ريشة في قلب إعصار . وقال شيخو :

- أنت ممنوع من الطعام . مفهوم ؟ .
- نعم مفهوم .

وأدركه الإعياء فارتمي علي الأرض .

انخلع قلبه لصوت قفل الزنزانة وهو يفتح ... إنه أمر يتكرر مرات كل يوم ، وقال أبو قدور : قم ... قم يا نذل وصاح أليف .

- محمود ، أنت عنيد جدًا ، ولكن عنادك لن يفيدك إلاّ مزيدًا من العذاب والمتاعب ... ستظل في التعذيب والجوع والمنع من النوم حتى تدلي بمعلوماتك كلها .
- لقد قلت ما أعرف .
- أنت لم تقل شيئًا .

ثم صرخ بغضب :

- اطرحوه علي الأرض .
- سيدي ، أرجوك ، بالتفاهم ، بالمنطق نصل إلي كل شيء ، لم أعد أطيق العذاب ، اقتلوني رجاء ... أرجوكم أن تقتلوني ..
- لن نظلمك ، ولن نقتل نفسًا بغير حق .
- لقد قتلتموني ألف مرة .
- لن يفيدك هذا الكلام .

وصاح أحدهم : اخلع ملابسك .

وشدوا الحبل عليقدميه ، فصاح :

- يا ناس ، رجلاي تتقطعان ، ارحموني .
- اخرس .
- اعترف .

وراحوا يمرغون وجهه بأحذيتهم ، وهو يصرخ .

- أحد ... أحد ... يارب أنقذني ، أنت قادر ، يارب ... يا سادة أبوس أيديكم ، أبوس أرجلكم .

ومن غير توقع ، كان يتلقي الرفسات في بطنه وعلي رأسه ، والصراخ ، والشماتة ، والإصرار علي سحقه ، بينما الكابل ينهال عليه بقسوة لا حدود لها .

- اعترف .
- لقد اعترفت .

وتعب شيخو من الضرب فاستلم أبو قدور ، ثم إبراهيم ، ثم عبود ، ثم شيخو ... وهو يتلوى تحت أقدامهم عديم الحيلة ، فاقد الأمل إلاّ من رحمة الله . واستمر الضرب عنيفًا لئيمًا .

- يا سيدي ، ستوقفهم حين تريد .
- ماذا تقول !؟ .
- أكلم الله .
- ليوقفنا إن استطاع .

واستمر التعذيب ، وسأل نفسه : كيف تكون جهنم !؟ . وصاح :

- سأعترف .
- دعوه إذن ...
- ماذا تريدون !؟ .

رد أليف :

- التنظيم المسلح .
- أنا وأمي وأبي وأخوتي في التنظيم المسلح ، هات أمض لك بالعشرة علي هذا ، وعلي الإعدام .
- إذن فأنت تلعب بنا .
- يا سيدي...

ولم يلتفت إليه ، ولكنه قال لشيخو :

- خذه إلي الزاوية و (.....) .

وصعق وهو يسمعها كلمة منكرة قبيحة عارية في قبو (الأمن) ، فقال :

- إن ثبت عليّ شيء فافعلوا ما تريدون .
- اضربوه .

يا إلهي ... إن لم تدركني برحمتك ، فأدركني بالموت أو الشلل أو الجنون ... وصاح :

- ليس لديكم دليل .

رد أليف باحتقار ، وقد قرر أنه قد آن الأوان كي يوجه إليه الضربة القاضية ...

- اعترف عليك مجاهد وثائر .. يا حيوان .

سُقط في يده ، وأيقن أنه لا مفر من الاعتراف ..

- دعوني إذن ، حرروا قدمي ، وارفعوا القناع عن عيني .

ورأي الدنيا ظلامًا ، وأليف يسلط عليه بقعة ضوء من كشاف يحمله بيده ، ومن رأسه الملصوق بالأرض أبصر مجموعة من الأشباح تُحيط به بشكل مرعب .. ولم يحرك فيه المنظر شيئًا ، وقام إلي المنضدة كالمجنون :

- أوقع لكم بالعشرة بأني من التنظيم المسلح .
- ومن معك ؟ .
- مجاهد وثائر .
- اضربوه .
- ماذا تريدون أرجوكم !؟ إن قلت إني منهم لم تتركوني ، وإن قلت لا علاقة لي بهم لم تتركوني .

واستمر التعذيب : ودفع شيخو العصا في قفاه فصاح ، وهدده بغيرها .

- يا سادة .. حرام .
- يا حقير ، ألا تعرف شخصًا يدعي أيمن !؟ .
- بلي ، أعرفه .
- ماذا كان بينك وبينه !؟ احذر أن تنظم معلوماتك ، فالتعذيب سيستمر حتى تقول كل شيء ، وليس ما هو موجود عندنا فقط ...
- سأعترف ..

وفكوا وثاقه وقناعه ، فانزاحت عن صدره هموم الدنيا ، وتفكك داخله ، فانهار ، وتناثرت إرادته في المقاومة كشظايا الزجاج المهشم .

لقد انتهيتُ يا إلهي ، هذه مشيئتك . وأخذ القلم وراح يكتب اعترافاته ، وأليف يبتسم وقد غمرته نشوة الانتصار . وتلاحقت الأصوات :

- إنه شاب ممتاز .
- ووطني مخلص .
- لا تعذبوه بعد اليوم .
- لقد غلطنا معه .
- المسامح كريم .
- سيذكر كل شيء بإرادته .
- إنه طالب جامعي ، مثقف ، وفاهم .
- اجلس علي الكرسي يا أخ .. استرح ..نحن آسفون .
- هاتوا له الماء والموز وما يطلب من طعام .
- اكتب .. اكتب يا ابن الحلال .

وبعدما كتب ما ظن بأنه يقنعهم ويخلّصه .. عرضوا عليه مجموعة من صور الملاحقين ، فأنكر بعضها ، وتعرف إلي البعض الآخر ، ثم أعادوه إلي الزنزانة .

جلس كوعاء من فخار محطم ، حاول أن يلم شمل شتاته ، ويمنّي نفسه بانفراج قريب ، وطعام مقبول ، ولم يطل انتظاره . إذ جاؤوه بكسرة خبز يابسة ، وقليل من فضلة شوربة العدس الباردة فلم يستطع الأكل ، وكان يحس قبل قليل بجوع كاسر . وقال له مدير السجن أبو اصطيف ، وهو يداعبه بابتسامة حنون :

- كُلّ .. كُلّ ، بالهناء والشفاء ، كُلّ يا ابني ، فالظاهر عليك أنك ولد طيب وابن حلال .
- شكرًا سيدي .

وغاب قليلاً ثم عاد مكشرًا عابسًا ومعه دولاب سيارة فقال :

- قم واحمل هذا الدولاب في رقبتك .
- لكن ...
- ولا كلمة .
- لا أستطيع الوقوف .. انظر إلي قدمي وما فيهما من ورم وجروح ودم .
- في (جهنم الحمرا) .. كان عليك وانت (تفرعن) في الخارج ، أن تحسب حسابًا لهذه الليالي ! .

يا إلهي ، كيف يلبسون الأقنعة وينزعونها !؟ حمل الدولاب فيعنقه ، وأحس بعجز وإعياء وغثيان من كل شيء ، وراح السجّانون يتناوبون علي مراقبته حتى مطلع الفجر .

- يا سيدي لقد اعترفت ، فماذا تريدون بعد !؟ .

- اخرس .
- اقتلوني .
- انت تحلم .

وسمع آذان الفجر يترامي إليه عميقًا شجيًا : الله أكبر ... الله أكبر ... أنت أكبر منهم يا الله ، وهذه الحقيقة الكبيرة هي الشيء الوحيد الأقوى من جدران هذا الجحيم الداعر . وقال للسجان إبراهيم :

- أتسمح لي بالصلاة !؟ .
- طبعًا ... ولو أنك سلبت راحتنا هذه الليلة ... نحن لا نمنع أحدًا من الصلاة .

ولم تعد رجلاه تحملانه ، ودارت به الدنيا ، فارتمي علي الأرض جثة هامدة ... رشقه إبراهيم بالماء ، ونكش رأسه بحذائه ، وقال : التمثيل لا ينفع هنا . تحامل علي نفسه وقام يصلي ، وشعر بغبطة وهو يتخلص من الدولاب لدقائق .. وفجأة دخل شيخو سكران يغني ، فلما رآه يصلي صحا من سكره وتحول وحشًا كاسرًا وصاح :

- لماذا الدولاب علي الأرض !؟ من سمح له بالصلاة !؟ .

وبحث عن شيء يضربه به فلم يجد ، فخلع حذاءه الصفيق وجعل يصفعه به علي وجهه ورأسه ، ثم بصق عليه ، وقال : الدولاب يا كلب .

يا إلهي ... إنني أسقط في هاوية بلا قرار ... لم أعد احتمل العذاب ، والانتحار جريمة ... لقد مضي ثلاثة أيام ، كل منها بسنة مفعمة بالعذاب والمرارة ... ضرب وشتائم وجوع وإرهاق وتنكيل وحرمان من النوم وحمل الدولاب ليل نهار ... وانهيار شامل يسري في كل خلية مني كالسم الناقع ، وما من شعاع يلوح في هذا الجحيم القذر ، والاعتراف يُدمي روحي .

رغم كثرة ما قرأ من كتب وروايات عن جحيم السجون وقسوة التعذيب ، بدءًا من قصة سحرة فرعون وأصحاب الأخدود وآل ياسر وبلال وخباب ، إليسجون عبد الناصر وغيره ، ورغم أنه كان لا يستبعد الاعتقال كنوع من الابتلاء في سبيل الله ، إلا أنه لم يكن يتصور أن السجن يمكن أن يكون بهذه الفظاعة ، ولم يكن يتخيل أنه سيلتقي يومًا هؤلاء المحققين والجلادين ذوي الهياكل الآدمية الخاوية من القلوب والعقول والضمائر ، الذين أخذوا يتفننون ويتلذذون بتعذيبه وسحقه كحشرة حقيرة بين أقدامهم وكأنهم ملوك تلك الأقبية السوداء . هؤلاء هم رجال الأمن . أمن الدولة ، إنهم حماة الوطن ! ممن ؟! . من الأعداء ... هل هناك أعداء للوطن في مثل قذارتهم ؟! . هؤلاء الأنذال الذين لم يعتقلوا يومًا جاسوسًا أصبحوا يستفردون بزهرة شباب الوطن ويذبحونهم هنا ... آه يا وطني .. إلي أين المصير ؟! آه يارب ، كم أنت صبور حليم ؟! .

بعد أربعة أيام كان في التحقيق موثقًا مقنع العينين ، وسمع صوت الرائد أليف يحتدم غضبًا :

- إذن فلن تعطينا كل ما عندك !؟ أقسم بشرفي لأسحقنّ عظامك .
- سيدي رجاء . ما عدت أطيق العذاب ، ولا أنتم تصدقونني ، ولم أعد أخشي علي شيء غير ديني .. أعرف أنه أمر لا يمهكم ، لكنه أغلي عليّ من الحياة .
- لن أصغي إليك بعد اليوم أبدًا .
- حرّروا يدي وعيني ، وسأقول ما تريدون .
- لن تري وجهي ..
- أرجوكم .

رفعوا القيد عن عينيه ، فوجد نفسه مع جلادين وسط مجموعة من ضباط الأمن الذين يرتدون الملابس المدنية ، ويبدون في أشكال بالغة الأناقة ... وقد جلسوا علي كراسي الخيزران في شكل نصف دائرة ... لم يعرف سببًا لهذا الحضور المكثف ... حتى قال أليف :

- مجرمون قتلة ، يقتلون أبناء الوطن .. وأنت الذي ستدلنا علي القتلة ... أنت الخيط الذي سيوصلنا إليهم .

توسل بإنكسار مرعب :

- ارحموني ...
- اطرحوه ارضًا .. واسحقوا عظامه .

وهجموا عليه ، فانتفض ، وطوق بكل يد واحدًا من الجلادين . لم يكن ذلك عن قوة في الجسم ، أو رغبة في الدفاع عن النفس ، بل كان لونًا من الحركات غير المفهومة التي تعبر عن اليأس ، فصرخ أليف ، دعوه ... وأقبل نحوه يسبّه ويصفعه بعنف وسرعة ، وهو واقف كالتمثال بلا حركة ، ثم صرخ به : اجلس علي الأرض يا كلب . ركض كالمجنون وجعل يضرب رأسه بالجدار ضربات قوية متلاحقة ، ولكنه لم يسقط .. لم يمت ... ركض نحو أليف يتوسل :

- سيدي .. ما هذه الورطة !؟ ماذا تريدون !؟ اقتلوني .. حبل المشنقة أسهل عليّ من عصا واحدة .
- اجلس يا حقير .

جلس ، وشدوا الحبل فسحق ، وجعل يصيح وقد فقد آخر ذرة عقل في رأسه ، وسكت .. شهق .. ورفع رأسه إلي السماء يدعو بقلب يتفجر قهرًا وضراعة ولسانه صامت : يا إلهي .. يا ربي ... حتى متى يستمر هذا الامتحان !؟ . شيء ما قد حصل ... تداركته عناية الله وهو علي شفير الهاوية . وقال أليف : اتركوه . وتابع :

- لو لم تكن من الجناح المسلح لما اتصل بك أولئك المجرمون .
- لقد اتصلوا بي كما اتصلوا بغيري ، لكن كأصدقاء .
- من هم !؟ .

وابتلع غصة في حلقه ، وقال :

- إنهم أبرياء ، ولا علاقة لهم بتنظيم .
- إنهم متورطون ، وأنت متورط .. اكتب أسماءهم جميعًا ، وحين نشك في أنك تخفي عنا أية معلومات ، مهما تكن تافهة ، فسنعتبرك كذابًا ، ونعيد التحقيق من البداية .

ماذا يصنع !؟ ألم ينطق عمار بن ياسر كلمة الكفر تحت التعذيب !؟ ألم يدل الغلام المؤمن علي الراهب تحت التعذيب أيضًا !؟ . كان يحاول أن يتلمس العزاء من تلك الصور ... وكانت روحه تنتفض مذعورة كالطير الذبيح ...

وعاد في الزنزانة وحيدًا يحمل الدولاب في عنقه ، ورأي مسمار حذاء في الأرض فحفر به علي الجدار (هنا إسرائـ ...) .

لقد انتهي كل شيء .. لقد اعترفت ، انتهيت ... سيأتون بإخوانك إلي هنا ، يقاسون العذاب والمرارة والقذارة مثلما قاسيت أنت ... أصحابك الذين يظنون بك خيرًا ، يحسبون أنك لن تعترف .. وأنت في نظرهم شيء كبير ، وأنت الآن شيء تافه .. لا شيء ... لكن ، ماذا أصنع !؟ لكل شيء حدود ، ولكل إنسان طاقة .. حتى الفولاذ ينكسر ويذوب ، كان الموت أسهل عليّ ، ولكن الموت لم يأت ، والرحمة كلمة لا وجود لها هنا ، وقد صبرت كما لم يصبر إنسان ، وقد أخرت اعترافاتي سبعة أيام ، وعلي أصحابي أن يدبروا أمورهم ... أن يهربوا .. أو يختفوا ، أو يغادروا البلد ... ليس من المعقول أن أذوب قطعة قطعة ، وهم يجلسون بلا حركة ... ولكنهم يظنون بأني أموت ولا اعترف .. هكذا علمونا في اللقاءات السرّية .

وقال له أليف : إذا تعاونت معنا فسأقف إلي جانبك ، وسأذهب معك إلي العاصمة وسأضغط بوزني كله من أجل تخفيف الحكم عليك .

أجابه : حاضر . وفي سرعه كان يتمني الموت .

وفي الزنزانة وقف وحيدًا ، وأخرج من جيبه قطعة نقدية صغيرة فحفر بها علي الجدار بأحرف كبيرة :

(إن الله اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ...) . " سيذهب العذاب ، ويبقي الثواب " .

من كوة الزنزانة ، رأي صديقه عبد الكريم معصوب العينين ، وسألوه : أهذا هو !؟ .

- نعم .

ونقلوه إلي زنزانة أخري . هذا الرجل كان مسافرًا ، أردت أن أقطع الخيط عنده . فمتى عاد !؟ وكيف يعود ويسترخي في بيته !؟ لقد اسود الأفق من جديد .. بماذا سيعترف !؟ . وفي القبو قال له أليف :

- لم أعد أثق بكلامك أبدًا ، أنت تخفي الكثير ، ولم تقل شيئًا حتى الآن .. ستتغير معاملتنا معك ، وستري العذاب الحقيقي .
- سيدي ، اسمح لي ..
- لا ..
- بعض الكلمات ...
- قل .
- ليرفعوا القناع عن وجهي أولاً .
- لن تري وجهي بعد الآن .
- أريد أن أعرف كيف أكلمك .

ورفعوا القناع عن عينيه ، فقال أليف :

- إياك أن تخفي شيئًا مما بينك وبين عبد الكريم ... لقد اعترف هو .. نريد منك إثبات حسن نية ، فأنت تكذب علينا .
- حاضر .

وجاءوا بعبد الكريم موثقًا مقنعًا وبدأوا بتعذيبه ، وقال أليف : اضربه يا محمود . أحس بأنهم يجردونه من آخر شعور إنساني ، بعدما جردوه من ملابسه ... لأول مرة .. يهز رأسه بالرفض ، ولكنه ظل صامتًا ، لم يلحوا عليه في الطلب ... إلاّ أنهم أوهموا صاحبه بأنه هو الذي يضربه ، وراح الرائد أليف يصيح ، والجلاد يضرب عبد الكريم .

- طيب ، اضرب ، يا محمود ، اضربه .

بعد ساعة وقف محمود أمام أليف مرة أخري ، فقال أليف :
- أريد منك أسماء من تعرف في التنظيم ؟ .
- لقد كتبت .
- ستعود إلي التعذيب .
- أتريدون أسماء أبرياء ؟ .
- نريد كل من له علاقة بالتنظيم ، أو متعاون ، أو متعاطف .

كان هذا تطورًا جديدًا .. يبدو أنهم يريدون الانتقام ، ليس إلاّ ، وأحس بأنه بحاجة إلي معجزة ليخرج من هذا المأزق ... للمرة الألف يتمني الموت .. ولكن .. أين الموت !؟ . وجلس في الزنزانة يكتب .. وقلبه يبكي .

حدثت جلبة كبيرة ، وترامي إليه صوت يقول : (المعلم الكبير) وبعد قليل كان في غرفة التحقيق أمام المعلم الكبير ، الجالس علي الكرسي خلف المنضدة ، بينما يقف أليف إلي جانبه وقفة جادة ... وتطلع إليه فرأي رجلاً في حوالي الأربعين من العمر ، غامق البشرة ، ضئيل الجسم ، بالغ الأناقة ، قال بصوت هادئ :
- اسمع يا محمود .. أنت حتى الآن لم تعطنا شيئًا من المعلومات ، ما ذكرته في اعترافاتك ليس جديدًا علينا ، فنحن نعرفه ، ونحن لا نريد إيذاءك ، ولم نصعد عمليات التعذيب معك حتى الآن ، لأننا نريد لك أن تخرج إلي أهلك ووطنك ومستقبلك وأنت تحمل صورة مشرقة عن الأمن ... وهذه فرصتك الذهبية ، فإما أن تدلي لنا بكل ما تعلم ، وأعدك ، وأقسم بشرفي وعروبتي وديني وشرف السيد الرئيس ، أن أفرج عنك مباشرة ، وأساعدك بكل ما تريد وتحتاج ، وإما أن نلجأ إلي طرق جديدة في انتزاع المعلومات . وقال أليف :
- أفهمت كلام سيادة المقدم جيدًا !؟ .
- نعم .

وقال المقدم : أتسمح لي بكلمات !؟ .
- تكلم .

فقال بطريقة انتحارية مؤدبة :
- لماذا هذا التعذيب !؟ هل هو أسلوب إنساني !؟ ومهما يكن ذنب المرء ، فهل يضرب بهذه الطريقة ، وإلي هذا الحد !؟ احكموا عليّ بما شئتم ، الموت ، أو السجن المؤبد ، ولكن أرجوكم أن تكفوا عن تعذيبي ... هذه فتنة ، وهي أشد من القتل ، وليتكم تجودون بقتلي ، وأنا أسامحكم ، وأبرئكم أمام الله وأمام الناس ... إنني لو تمكنت من الإرهابي موشيه دايان ، والجزار مناحيم بيغن ، أعدي أعداء الإسلام والعروبة ، لما فعلت بهما نصف ما فعلتم بي ... لأن هناك شيئًا اسمه إنسانية .

والتفت المقدم نحو أليف ، بعدما رأي أن هذا الشاب الذي أصبح أشبه بشبح خارج من قبر ، قد نال فوق ما يحتمل ، وقال : لا تعذبوه بعد اليوم .
- أمرك سيدي .

وتابع المقدم :
- محمود ، أنتم شباب متحمسون ، مخلصون لدينكم ونحن لا نشك بهذا أبدًا ، ونقدر اندفاعكم وطهارتكم ، ولكن قادتكم عملاء ، ولدينا وثائق ثابتة تؤكد كلامي ، وسأطلعك عليها أنت بالذات .
- هز رأسه مجاملة ، وقال : حسنًا .

وخرج المقدم ، ودخل أبو مغير باسمًا يقول :
- محمود ، هذه فرصتك فلا تضيعها ، لقد وعدك سيادة المقدم " علي سعد الدين " ، وهو إذا وعد وفّي ، لأن كل شيء بيده ، وهو رئيس الفرع وكلامه فوق كلام المحافظ .
- لماذا لم يفرج عني الآن !؟ .
- لأنك لم تتكلم بكل ما تعلم ! .
- لقد عصرتموني كالإسفنجة ، حتى لم يبق فيها قطرة ماء .
- أنت حر ، وأنا أنصحك .

وجلس في الزنزانة وحيدًا ، وقد أعفوه من حمل الدولاب بعد عشرة أيام ، وسمحوا له بالنوم ...جلس يستعرض أيامه في السجن ، ويذكر أهله وأصدقاءه ، ويتأمل حاله ومستقبله ، وهو لا يكاد يصدق شيئًا مما يجري ... وهمس في ألم : لا ريب أنني في كابوس .. في حلم مزعج .. ولا يمكن أن يكون في العالم شيء من هذا !؟ مستحيل .. مستحيل ... مستحيل ... وقف أمامه ضابط طويل معروق ، فقال :
- سمعنا بأنك صاحب فكر ..
- هذه مبالغة .
- لذلك ستكتب لنا مقالاً يدين العنف الذي يمارسه الشباب ، من وجهة نظر إسلامية ...

وقال أليف :
- ألست تزعم بأنك ضد العنف والتطرف !؟ .
- بلي ..
- إذن فاكتب ، وبسرعة .. فنحن نحتاج المقال لنشره في جريدة الجمهور ، موقعًا باسمك .
- سيدي ...
- انتهي الأمر .

وفقد رغبته في المقاومة ، إن الفكر قابل للاغتصاب أيضًا ! . إنه ضد العنف والتطرف ، كما أنه ضد الظلم والاستبداد ، لكنه وهو في هذا الجحيم لا يملك الإفصاح عن موقفه ...المطلوب منه إدانة العنف والسكوت عن القهر والعسف . هز رأسه وقال : حاضر . وقال الضابط الوسيم : أريدك أن تحشو المقال بالآيات الشريفة ، والأحاديث المقدسة .. مفهوم ؟ .
- أمرك يا سيدي .

وفي زنزانة منفردة كالقبر ، أو أقصر قليلاً ، جلس مسلوب الإرادة يكتب المقال المطلوب ، وقد فقد إحساسه بالوزن ، وراح يتلاشي كالبخار ، ويدعو الله بقلب كسير .

لم يمض إلا يومان حتى اعتقل شاب يدعي باسمًا ، له به صلة ، فاستدعوه : هذا صاحبك باسم يذكر أشياء لم تذكرها أنت ، رغم أنك تعرفها !؟ . هذا يعني أنك تكذب علينا !؟ تعطينا المعلومات بالقطارة ! تتسلي بنا .. سنعيد التحقيق . وغص بالكلام ... لم يعرف ماذا يقول ، ولا كيف يدافع عن نفسه ، الإدانة واضحة ، والدفاع خاسر ... وهذه قضية لن تنتهي فصولها .. ففي كل يوم يمكن أن يأتوا بمعتقل جديد ، واعترافات جديدة ... وإحراج جديد ما الحل !؟ .. أن يذكر كل ما يعرف فذلك دمار لإخوانه ، وأن يبقي مهددًا بإعادة التحقيق بين يوم وآخر فذلك شيء لا يحتمل ، ومن قرارة يأسه قال :
- ما قاله باسم صحيح ، وأنا لم أخفه عنكم ... هي معلومات تافهة جدًا ، ولو أنها خطرت ببالي لكنت ذكرتها لكم.

وقال أليف ، سنجعلك تتذكر حليب أمك .. وراح ينظر إليه نظرات مثقلة بالمعاني المتناقضة ، ثم تابع يقول :
- أود لو أصدقك مرة واحدة ...
- أنت تعلم بأني صادق .
- أنتم تعتبرون الكذب علينا قربة إلي الله .
- اعتبرني صديقًا .
- لو كان في يدك مسدس الآن لما ترددت في إطلاق النار علينا جميعًا ، هذا هو الشيء الوحيد الذي أومن به .

وانفرد به مساعد فقال : لا تحاول إخفاء شيء ... كل مواطن له ملف طويل عريض هنا ... حتى غمضة العين التي تغمضها مسجلة لدينا .
- لم يستطع مقاومة رغبته في السخرية فقال : طبعًا .. جهاز أمن .. دولة !! .

وذهب ، فجاء بعد دقائق مساعد آخر ، في الخمسين من عمره ، وقال : أين كنت يا عفريت !؟ لقد كلفت بمراقبتك قبل اعتقالك بأسبوع ، فلم أقع لك علي أثر !؟ .
- كنت أمارس حياتي المعتادة .
- لقد راقبت المسجد الذي تصلي فيه .
- وأنا لم أنقطع عن صلاة الجماعة .
- مستحيل .. أنت كذاب .
- وكنت أجلس أحضّر دروسي وأقرأ في المسجد حتى في غير وقت الصلاة ... وأحيانًا كنت أنام هناك .

هز الرجل رأسه وقال : أنا حاج .. أديت فريضة الحج ، وأحضر مع السلفيين أحيانًا .. أنا مسلم .
- لعل هذه الأنشطة جزء من المهمات ؟ .

ابتسم وقال :
- وما المانع !؟ .

وفي زنزانته المنفردة رقم ٧ سمع أبا مغير يهمس : ضعوه في الغرفة التيفيها عنصرنا .

ولما نقلوه إلي الزنزانة الأولي ، رأي فيها رجلين ، الأول منهك من التعذيب ، والثاني يكون العنصر ولا ريب ... يسب ، ويشتم ، وينتظر ردود الفعل منه ، وماذا يفضي له به ...

خارج جدران السجن كانت المدينة تلتهب ... عمليات ومطاردات واغتيالات ومداهمات في كل يوم ... بل إن المشكلة امتدت إلي المدن الأخرى ، وأصبحت أكثر تأزمًا وخطورة علي الوطنت كله بكل مافيه ... فهناك إصرار المجاهدين علي إسقاط النظام ، يقابله إصرار النظام علي استئصال الجماعة بكل ألوان العنف والشراسة .. وكانت حملات الاعتقال مستمرة والسجن يستقبل عددًا من الضيوف الجدد يوميًا . وبعد مضي عشرين يومًا دعوه ، وقالوا له : وقّع .
- علي ماذا !؟ .
- علي اعترافك ...

وكانوا قد نسقوا اعترافاته ، وأفرغوها بأسلوبهم في ملف خاص فقال :
- أريد أن أقرأها أولاً .
- وقّع .
وأيقن ألاّ جدوى من الاعتراض ، فوقّع ، ولمح علي الملف : محمود الأنصاري ، تنظيم مسلح ، فقال : ولكني لست من التنظيم المسلح !؟ . لم يرد عليه أحد ، فقال باستهتار : هذا يعني أن حبل المشنقة بانتظاري !؟ . أجابه أليف بابتسامة ساخرة .. ومضي .
أمضت أم محمود أيامها ولياليها في الصبر والحزن ، والبكاء والدعاء ... كان قلبها يحوم حول ابنها ... كانت تستنطق إحساسها وتقدمه علي أحاديث من حولها .. قالت لأخيها :
- لابد أن تبحث عن واسطة .
- هذه قضية لا واسطة فيها .. إنها أمن الدولة ..
- والحل !؟ .
- أن يأتي الفرج من عند الله وحده .
- لابد أن أراه ..
- لن يسمحوا لك بذلك ..
- سأراه غصبًا عنهم .. إنه ابني ... ماذا يصنع به أولئك المجرمون ؟ .
- اصبري ، واحتسبي ، وادعي له .. ولا تنسي أن الله موجود ، لن يتركه وحده ، ولن يتخلي عنه ..
ذات يوم ، اتجهت وحدها إلي فرع أمن الدولة ... قابلها أول حارس ...
- نعم ..
- أريد أن أقابل ابني ..
- إنه ليس عندنا ..
- طيب .. أريد أن أقابل رئيس الفرع .
- ممنوع .
- لماذا !؟ أريد أن أكلمه ... أريد أن اسأله عن ابني .
- انقلعي ، وإلاّ وضعناك بجانبه .
- ليتكم تفعلون ..
- قلت لك : انقلعي ...
كان أليف متكئًا علي سرير في قبو التحقيق ، وعلي حافة السرير يجلس ضابط آخر ، وأمامهما يقف فتي في الخامسة عشرة ، بالغ الوسامة ، وحين أُدخل محمود كان أليف يعبث بشاربه ، ثم قال :
- أليس حرامًا عليكم أن تسمموا عقول هؤلاء الفتيان ؟ .
رد محمود بابتسامة ساخرة ، وفي وقوفه بدا متراخيًا فصرخ به شيخو :
- قف باستعداد يا حيوان ، أنت أمام سيادة الرائد .
فابتسم أليف وقال : دعه يقف كما يريد . ثم التفت إلي محمود قائلاً : إيه ، ما رأيك !؟ .
- إنه برئ ، وأنتم تعلمون ذلك ، وأعتقد بأنه كان يحضر في جلسات مفتوحة ، ولا علم له بالتنظيم ... وبرغم أني لا أعرفه سابقاً .. لكني أرجو ، وأمل أن تطلقوا سراحه .
وقال الضابط الآخر :
- أتعرف عدنان سعد الدين ؟ .
- نعم .
- هل رأيته !؟ .
- نعم .
- أين ؟! .
- هنا .
- كيف يا مجنون ؟! .
- لقد استدعاني منذ أيام ، وتحدث إلي .
فضحك الضابط وقال : هذا علي سعد الدين رئيس الفرع ، ولكن عدنان سعد الدين هو المراقب العام للجماعة .
- حقاً ! .
- ألا تعلم ذلك !؟ .
- هذه أول مرة أسمع فيها باسمه ، تنظيمنا سري كما تعلم .

ضحك الضابط وقال : ولكنا نعلم كل شيء . وقاده أليف إلي غرفة التحقيق ، فقال : اجلس علي الكرسي . وطلب له كأس شاي ، فوجدها لذيذة جدًا بعد شهر من الهجران القسري ، فطلب واحدة أخري ، فجاؤوه بها ، فطلب ألا يقطعوها عنه فوعدوه بذلك ، ولكنهم لم يفعلوا .

وقال أليف إيه ، حدثنا عن الصوفية .. إنني أسمع بها ولا أعرف معناها ..

قال محمود : المعتدلون من الصوفية هم قوم أعطوا عناية كبيرة للجانب الروحي والأخلاقي ، يتميزون بالزهد والورع والشفافية والتقوي ، ولهم رياضات خاصة بهم ، وتجارب فريدة .

- والمنحرفون منهم !؟ .
- الانحراف لا حدود له .
- والسلفية !؟ .
- المعتدلون منهم يغلب عليهم الطابع العلمي ، والتدقيق والتمحيص ، والاهتمام بصحيح السنة .

قال أليف وهو يبتسم : والانحراف لا حدود له ، حسنًا ، والإخوان ! .

تطلع محمود حوله فرأي كل جلاد يحمل (سلاحه) بيده ، ووعيده في نظراته .. فقال : إذا كنت تريد حوارًا بين رجلين فأنا مستعد ، وسأقول رأيي بصراحة ، إذا اعطيتني الأمان .. أما أن يكون حوار بيني وبين السياط ، فسأقول ما تحبون سماعه . قال أليف وهو يضحك ، حسنًا ، لك الأمان .

فقال محمود : الإخوان – في رأيي – أفضل الجماعات الإسلامية فهمًا للإسلام والواقع ، ودعوة إلي الله ، وأكثر الجماعات نضجًا وجاذبية ، لذلك التزمت بالجماعة ، رغم ما في طريقها من عقبات ومخاطر .

قال أليف ساخرًا : أستاذك عبد الله لا يشرب كأسه إلا مع الشاعرة هند موسي ، وأستاذك (.....) من قوم لوط . لم يكترث لما سمع ، وقال :

- إذا أردت فكر الإخوان ، فهو واضح في كتبهم التي تملأ الأسواق ، وأنا مستعد للحوار مع أي إنسان حوله ... وإذا أردت أشخاصهم ، فهم يتمثلون عندي بحسن البنا وسيد قطب والمودودي ... ولا أحد يقدر أن يطعن بواحد من هؤلاء .
- والشيخ أحمد حسن !؟ .
- إنه منكم .
- كيف ؟ .
- رجل أمن .. معروف باتصاله بكم .
- ولكنه يسبنا علي المنبر ... !؟ .
- تنفيس ... مثل (غوار الطوشة) .
- (غوار الطوشة) للتنفيس ، نعم ، أما هذا فلا .
- وتردده علي الفرع !؟ .
- نحن نستدعيه أحيانًا ، حين يشتد في نقده ، لنفرك له أذنه .. ويقول الرجل : أنا أنتقد أشياء موجودة ، أزيلوها لأكف عن نقدها .

وانتقل الحديث عن السياسة ، فقال محمود :

- وعبد الناصر ! ما رأيك فيه ؟! .
- كان زعيمًا عربيًا كبيرًا ... ولكنه كان بلا فكر . وتابع وهو يضحك : رأيكم فيه معروف .

ثم أخذ الرائد مظهر الجد وقال : أريد منك جوابًا حاسمًا .. لماذا تلجؤون إلي التنظيم السري ؟! .

- لأنكم لا تسمحون لنا بالتنظيم العلني .
- قال أليف : خذوه .

انتهز محمود المناسبة وقال : سؤال لو سمحت . رد أليف : هنا نحن الذين نسأل ..

- هل اعتقلتم أمين أصفر ؟! .
- ما شأنك أنت ؟! .
- أريد أن أعرف نهاية الأسطورة .
- استسلم بمنتهي السهولة .

نقلوه إلي زنزانة جماعية ، وأصبح السجن يغص بالنزلاء ، بعضهم من المطلوبين ، وبعض آخر من الرهائن أقارب المطلوبين الفارين ، وفريق ثالث كانوا من عابري السبيل في موقع جرت فيه عملية ضد دورية أمنية ، وآخرون جاءت بهم وشاية أو زلة لسان أو تشابه أسماء أو عدم حمل بطاقة الهوية أو صداقتهم لأحد المعتقلين أو المطلوبين ، وكان المحققون والجلادون يتعاملون مع كل أولئك كحشرات حقيرة لا حق لها بالاعتراض أو التساؤل عن سبب الاعتقال ، أو متى الخروج ...

أما غيابهم الغامض عن أهليهم وزوجاتهم ومهاتهم وأبنائهم وعملهم فهو أمر لا يعني أي شيء عند رجال أمن الدولة ... فمن شاء فليصبر ، ومن شاء فليمت بغيظه ..

وقف بضعة عشر سجينًا في طابور في الممر الضيق في السجن . أكثرهم مقنع العينين ، وكلهم مقيد اليدين .. إلي أين !؟ ... وخيّم صمت كئيب ، وتوقع لمفاجأة لا تسر ... وسار بهم (ميكروباص) يشق ظلام منتصف الليل وفوق ظلمة الليل كانت هناك ظلمة الأقنعة .. وطال الطريق ، فأدرك السجناء أن وجهتهم نحو العاصمة ... وفي منتصف الطريف رفعت الأقنعة ، وبقيت القيود ، وكان في السيارة ثلاثة عناصر مسلحين ، ومع الموكب سيارتا مرافقة .

ألقي محمود نظره إلي العاصمة ، ساعة الشروق ، كانت الطرق خالية من المشاة وازدحام المرور ، فخيل إليه أن العاصمة حزينة ، وأن بساتينها الغنّاء ، لم تستطع التخفيف من حدة حزنها ، وقابلته الشمس فانبعث في نفسه أمل يمتد بين الأرض والسماء . وقال في نفسه : إن الله لن يتخلّي عنّا ... وابتسم ابتسامة لا معني لها أمام مدخل السجن الجديد ، فتلقي لسعة علي رأسه بالخيزران ، وقال عنصر (الاستقبال) : أتضحك أيضًا !؟ . وفي ممر ضيق جلس مع بقية السجناء ... تفحص الوجوه فرأي في كل منها قصة عذاب لا نهاية لها . وقال سجّان : ولا كلمة ، ولا همسة ، ولا حركة .. كل شيء ممنوع .

وراح يستمتع بأشعة الشمس التي لم يرها منذ شهر ، فاختلج في صدره رضًا خفي ، واستمتع بالفطور لأول مرة ، وهو يحصل فيه علي نصف كأس من الشاي ، وعاد يتفحص من حوله ... الوجوه البائسة ، والأقدام المتورمة الدامية ، والثياب القذرة ، والشعور المنكوشة ، وترقب المجهول المختبئ في ثنايا الساعات القادمة ، انتصف النهار ، واشتدت حرارة الشمس ، ولكنها لم تزعجه ، بل كان يتعرض لها مستزيدًا من لفحها الذي افتقده طويلاً ، وربما مدخرًا منه للأيام المقبلة . ولأن الصلاة ممنوعة ، والوضوء ممنوع ، حتى التيمم وتحريك الشفاه ، فقد أدي هؤلاء السجناءصلواتهم في صمت من غير وضوء ولا تيمم . وسبق في المساء إلي مكتب المحقق زكي ، فرأي رجلاً في منتصف العقد الخامس يجلس خلف مكتب فخم ، في غرفة واسعة ، فاخرة الأثاث ، مثلما هو بالغ الأناقة ، فقال وهو يدخن السيجار : محمود ، أنت ذاكر في (إضبارتك) أشياء لا بأس بها ، ولكنها لا تمثل أكثر من جزء علي عشرة مما لديك ، فلابد من إكمال الباقي ، ونحن لا يمكن أن نتساهل معك ، لأن القضية تتعلق بأمن الدولة ...أجاب وهو يكتم غيظًا قاتلاً بهدوء مصطنع.

- سيدي ، إذا كانت المسألة مسألة حرق أعصاب ، وتعذيب للتشفي ، فماذا بوسعي أن أقول !؟ ... أما إذا كانت مسألة منطق وحقائق ، فقد اعترفت بكل شيء .
- هل عذبوك هناك !؟
- انظر إلي وجهي ، وقدمي .
- لا ، هذه دغدغة .. مداعبة ... هنا نحن في العاصمة ، وأساليبنا مختلفة تمامًا .

وساد صمت ، وذهول قطعه النقيب بقوله : بم تفكر !؟ .

- بالموت .

ضحك النقيب ضحكة طويلة ، وقال : أنت متشائم جدًا ويبدو أن التحقيق أثر عليك كثيرًا . ولم يجبه بشيء ، فتابع النقيب :

- حسنًا ، لقد قرأت ملفّك جيدًا ، ولاحظت انسجامًا بيننا في التفكير ، لذلك ، سنضعك الآن في غرفة جماعية ، وهذا من مصلحتك طبعًا ، لنبعدك عن الملل والوحدة ، ولكنا سنعطيك أوراقًا وقلمًا لتكتب كل ما تعرفه ، أو تتذكره علي مهل .
- سيدي أرجوك ، لقد قلت كل شيء هناك ، وعلي مدي أكثر من شهر ، عصروني كقطعة من الإسفنج ولم يبق فيها قطرة ماء .

ودخل المهجع ، فوجد مجموعة من السجناء الأصدقاء ... عانقهم بحرارة .. وقال أحدهم :

- سامحك الله ماذا فعلت ؟! .
- إنني منهار .
- لقد خربت الدنيا .
- الدنيا لم تخرب باعتقالك ... إنها خربة من زمان ، ولكني لم أكن أعلم بذلك .
- أنا لم أقصد .. لم أقصد الإساءة إليك .
- وأنا لم أتبرع بالمعلومات .. كان العذاب فوق كل احتمال ... من منكم الذي لم يعترف ؟! .

فلم يجبه أحد ، فتابع : من منكم لاقي ربع ما لاقيت ؟! وساد صمت ، فعاد يقول :

- لم أكن أتصور أن الأمر يمكن أن يتطور إلي هذا الحد .. الندم يأكل أعصابي . وفي قلبي نار ، وقودها شعوري بالذنب .. أنا إنسان من لحم ودم ، ولست قطعة من الفولاذ ... كنت أفضل الموت علي اعتقال واحد منكم ، ولكن ، لم يكون لي خيار .. لماذا لم تختبئوا ؟! لماذا لم تغادروا البلد ؟! .

رد أحدهم : لم نكن نظن أن تعترف بشيء .. وساد الجو تأثر ، فقال الأول :
- إني أعتذر إليك .
وقال آخر : سامحنا فقد أسأنا إليك .
وقال ثالث : إنه قدر الله ، فلنواجه أقدارنا بشجاعة وإيمان . وتعانقوا جميعًا ...
قال محمود : هل يوجد تعذيب هنا !؟ .
فأجابه أحدهم : بالنسبة للقادمين من تحقيق سابق ، فلا تعذيب غالبًا . تنفس بعمق .. وقال : الحمد لله . وتابع : وبقية الأمور !؟ .
- الطعام هنا أحسن قليلاً ، ومعه (دوسير) ، تفاحة أو برتقالة كل يوم ، ولنا ثلاث مرات نخرج فيها إلي دورة المياه والشرب في اليوم ، وعلينا أن نقف جميعًا كلما فتح الباب .. البارحة تلقينا فلقًا لكل منا : لأننا كنا نصلي في التشهد الأخير ، عندما فتح الباب فتأخرنا بضع ثوان حتى أنهينا الصلاة ووقفنا ... وبالمناسبة الوضوء ممنوع ، والوضوء لا يجوز إطفاؤه ليلاً أو نهارًا ، وبقية الأمور معروفة : لا دفاتر ، ولا أفلام ، ولا كتب ، ولا مصاحف ، ولا راديو ، ولا جريدة ، وهناك انفراج في المشتريات ، حيث تستطيع شراء بعض اللوازم الضرورية مثل (البيجاما) ، وفرشاة الأسنان ... وبدل داخلي .. و ..
- وماذا أيضًا !؟ .
- وفقط ..
- لا بأس ، الخلاص من التحقيق والتعذيب ، هو انتقال من الجحيم إلي النعيم ... لم أعد أبالي ، لو قضيت بقية عمري هنا ، حتى يدركني الموت .
وقال أحدهم : لقد وقعنا في بئر عميقة .
عقَّب محمود :
- أمن المعقول أن تتصور مجموعة لا تتجاوز العشرين شابًا ، أن بإمكانها الإطاحة بنظام بوليسي رهيب .
فقال ثالث : صحيح .
وعاد الأول يقول : الأمل بالله كبير .
وقال آخر : إن بقينا أحياء ..
الجو خانق ، وكوة صغيرة جدًا ، هي المنفذ الوحيد للهواء الذي يتسرب كسولاً ، وروائح نتنة تنبعث من كل سجين تكفي لإفساد جو غرفة كبيرة ... روائح عرق متراكم ممزوج بغبار الأرض ، وأحد عشر سجينًا في قبو كالمزبلة لا يتسع لعشر دجاجات ، وإحساس بالقهر والظلم والطغيان ، وتساؤل عما يكنّه المستقبل المجهول الداكن ، وفراغ كبير ، وملل قاتل ، واستسلام لقدر الله ... وشهر رمضان اقترب ، وهو يثير في النفوس أمواجًا من الذكريات والحنين والشفافية ...
وقال محمود :
- سنستغل وجود الشيخ محمد خير معنا لسماع القرآن الكريم ، وتحصيل بعض العلوم الشرعية .. فهذه أفضل وسيلة للإفادة من الوقت ، ومحاربة الملل ... واستراح الجميع للفكرة .
كان الشيخ محمد خير في منتصف العقد الرابع ، ذا شخصية طريقة متميزة ، فهو ضليع في العلوم الإسلامية ، دافئ المرح ، عجيب الصبر والتسامح ، أبيض أشقر ، أزرق العينين ، كث اللحية ، طويلها ، قال له محمود يومًا وهو يتأمله : يا سبحان الله يا شيخي ! . ابتسم الشيخ قائلاً : ماذا !؟ .
- رغم أنهم قد نتفوا نصف شعر لحيتك إلاّ أنك لا تزال تذهب بشطر الحسن .
ضحك الجميع ضحكة أعلنت عن ضم أصواتهم إلي صوته ، وشعر الشيخ بخجل وحياء ، فاحمر وجهه ، وقال : سامحك الله ... ما هذا يا أخي !؟ اتق الله ، فقال محمود : واتق الله أنت أيضًا ، فإنك لم تترك للرجال شيئًا من الحسن يستعينون به علي متاعب الحياة . وعاد الجميع يضحكون ... والشيخ يعتذر بحرج شديد ، وقال محمود : أقترح أن تجعل لنا في كل يوم درسين في الصبح وبعد العصر ، في علوم الحديث ، والتفسير أو الفقه ... وكان للشيخ مريد طريف طيب ، يدعي عبد السلام ، كان كلما شعر بدبيب الملل أو احتدام الجدل ينقذ الموقف بقوله : إذاعة القرآن الكريم من سجن (السادات) تقدم لكم ما تيسر من كتاب الله من تلاوة شيخي محمد خير .. فيقرأ الشيخ ما تيسر ، حتى يجد الهدوء والراحة والسكينة مرتسمة في الوجوه .
وقال عبد الكريم : عندي كنز لا ينفذ من حكايات جدتي ، سأقص عليكم قصتين كل يوم ، نستعين بذلك علي طرد الملل ، وجلب شيء من البهجة .
خرج محمود من شروده فجأة وقال :
- هل فيكم من يعرف سجينًا باسم ثائر ؟ ..
ضحك أحد السجناء طويلاً وهزّ رأسه أن : نعم .
- اعترف عليّ .. لا أدري ماذا قال لهم ! ...

- لقد اعترف عليّ أنا أيضًا ... اعترف بأننا تدربنا معًا علي القنابل والمسدسات في أحد البساتين .. بالطبع شيء من هذا لم يحصل ، ولكنه أراد أن يوقفوا العذاب عنه ..
- وهل نجا !؟ .
- لا أدري ..
- أيمكن أن يكون قد ذكر اسمي بين الآخرين !؟ .
- بالتأكيد .
- كيف عرفت ؟ .
- قضيت معه ثلاثة أيام في زنزانة واحدة .
- ومن أين أتي باسمي !؟ .
- إذا قابلته فاسأله ! ..

فتح الباب السجان ، فقال عبد السلام : موعد (النزهة) . وفي الطريق إلي دورة المياه استوقفهم مدير السجن ، أبو رمزت ، وهو طويل كالجدار ، يقترب من الخمسين من عمره ، فقال :

- الإسلام دين الحب ، والتسامح ، دين الرحمة والإخاء ، والأخلاق الفاضلة والسيرة الحسنة ، وليس دين القتل وسفك الدماء واغتيال الأبرياء ، يا قتلة ، الويل لكم ... لن يخرج أحد من هنا إلاّ إلي القبر ... واقترب من محمود يقول : وأنت ، سأضعك علي (الخازوق) .

لم يستطع أحد الرد بكلمة واحدة .. رغم شعورهم جميعًا بالبراءة مما قاله . وشعر محمود بالغثيان ، وهو يشم أنفاس أبي رمزت ممتزجة برائحة الخمر ... وتابع أبو رمزت :

إذا رأينا فيكم أحدًا يتوضأ فسنمنعكم من الخروج إلي دورة المياه ... مفهوم !؟؟ .

قال الجميع : مفهوم سيدي .

وقال عبد الكريم : لو سمحتم يا سيدي لنا بالاستحمام ، فنحن لم نستحم منذ شهر ونصف ، ورائحتنا أصبحت لا تطاق .

تفكر أبو رمزت مليًا ، ثم قال : حسنًا ، تدخلون كل اثنين معًا ولمدة عشر دقائق ... لا ، بل سبع دقائق ..

وشعروا بامتنان .. وقال السجان : فرصتكم في دورة المياه عشرون دقيقة لكم جميعًا ، كالعادة .. وكانوا أحد عشر سجينًا .. قال محمود : لكل واحد أقل من دقيقتين .. ننظم الدور قبل الخروج بالأرقام .

وأصابه مغص في بطنه ، ومواعيد الخروج محددة ، وراح يتألم ، وأحس بحرج شديد ، أمعاؤه تكاد تنفجر ... قرع الباب بشدة ، فلم يجب أحد ... ماذا يصنع !؟ . بعد ساعتين من الألم ، فتحوا الباب .. ركض باتجاه دورة المياه ، لكن السجان ناداه ، ووبخه ، وتناوله مدير السجن أبو رمزت بصفعتين دوّي صداهما في أركان السجن .. واستمرت المشكلة أيامًا ... وتفاعل الجميع معه ، دون أن يملكوا له شيئًا إلاّ أن يمنحوه فرصتين في الخروج الواحد ، فيكون هو الأول والأخير . وفي ساقه اليسرى ، كان حبل الفلق قد سحق الجلد ، فظهر العظم ، وانتشرت دائرة كبيرة من البثور الحمر حول الجرح ، وخاف التسوس ، وطلب طبيبًا فنهره السجان باستهزاء وشماتة .

إنه عصر آخر يوم من شعبان ... بعد المغرب يدخل شهر رمضان .. الناس خارج السجن يحتفلون بقدوم شهر الخير ... أما محمود وأصحابه فكانوا ينقلون إلي سجن آخر . في الطريق تذكر محمود أمه وإخوته ، وكلهم أصغر منه ... من الذي يرعي هذه الأسرة !؟ ومن يواسيها في هذه الأيام المباركة الحزينة !؟ .. إنه الله ، ثم ، أليست هي واحدة من مئات الأسر المنكوبة !؟ .

أنزلوا من السيارة في سجن كفر سوسة ، الواقع في أحد أطراف العاصمة ، وصاح مدير السجن أبو عصام :

- فواز ..
- حاضر سيدي .
- هيئ المهجع الثاني بسرعة .
- حاضر .

مهجع !؟ يالها من كلمة طريفة ، هذا يعني الخلاص من الزنازن والأقبية ! .. ولعلنا نجد هنا شيئًا من السكينة والطمأنينة ، وأرسل طرفه في السماء ، فرأها زرقاء صافية ، والشمس تجنح للغروب . وأُدخلوا إلي صالة صغيرة ، ثم أُنزلوا في سلم إلي دور أسفل ، يضم مهجعين وبعض الزنزانات ، وفتح باب المهجع فدخلوا جميعًا ليلقوا عددًا كبيرًا من السجناء ، وما إن أغلق السجان الباب ، حتى انكب السجناء يعانق بعضهم بعضًا في حرارة وشعور بالأنس .

وقال أمير المهجع عادل غنوم ، وكان شابًا في الثالثة والثلاثين من عمره ، واضح التقي ، بالغ التهذيب ، ذكي العقل ، كريم النفس . المهجع ، كما ترون ، لا تزيد مساحته علي عشرين مترًا ، له باب يفضي إلي المطبخ ، وهو مطبخ صغير متواضع فيه مغسلتان ، وحمام صغير ودورتا مياه ، نستخدم إحداهما لغسل الأطباق ... وتابع الأستاذ عادل : أهم ما في

الأمر هنا ، أن المرء يستطيع قضاء حاجته متى شاء ... فهل تريدون حرية أكثر من هذا !؟ . ضحك الجميع وعلّق محمود : هذا إنجاز حضاري ضخم ، يضاف إلي منجزات الحركة التصحيحية .

ولما ضحك السجناء ، تابع : وماذا يعني صعود الأمريكان إلي القمر !؟ واستمر الضحك ، وعاد الأستاذ عادل يقول : نرحب باسم الإخوة جميعًا بالإخوة القادمين ، ونرجو الله تعالي أن تكون أيامنا هنا قليلة ، وأن تملأها بالعلم ونعمرها بالمحبة ... هذا السجن كأي سجن مدني ، لا تعذيب فيه ولا تحقيق ، ونحن مودعون هنا بالأمانة ، ولا ندري شيئًا عن مصيرنا ، علاقتنا بالسجانين محدودة جدًا تقتصر علي تسلم وجبات الطعان فقط ... المعاملة هنا أفضل بكثير من بقية الفروع ، وفي كل أسبوع تكتب لهم قائمة مشتريات تشمل بعض الضروريات من سكر وشاي وصابون وكاز وما يشبه ذلك ... والإنجاز الحضاري الآخر – وهو ينظر إلي محمود باسمًا – أننا نستطيع تناول الشاي حين نريد . وابتسم الحاضرون . وقال محمود : هل لنا هنا من نافذة علي العالم الخارجي ؟ .

أجابه عادل : كل شيء ممنوع ... القلم والورق والكتاب والجريدة زالقرآن والراديو ... لكنا استطعنا تهريب نسختين صغيرتين من القرآن الكريم ، وجهاز راديو صغيرًا جدًا ، عن طريق بعض السجناء القدامى الذين يقومون بالسخرة .. وهناك رسائل سرية يهربها عناصر السخرة بيننا وبين المهاجع الأخرى المليئة بالإخوان ، ما عدا المهجع الأول فنزلاؤه من الشيوعيين ...

- بالطبع هنا لا يوجد حظر علي الوضوء والصلاة ، ونحن نرفع الأذان ، ونصلي جماعة ، ونرتل الأناشيد أحيانًا والحمد لله ...

وتحول المهجع إلي خلية نحل عالية الطنين بسبب الأحاديث الثنائية والثلاثية ، وراح السجناء يتفقد بعضهم بعضًا ، وكلّ يفضي ببعض ما قاساه من أيام دامية رهيبة ، فيزيح عن نفسه بعض ما تراكم عليها من أثقال عاتبة ، وقال الأستاذ عادل لمحمود : سمعنا بأنك عانيت الكثير ، فاحتسب ذلك عند الله . قال محمود : أرجو أن يقبلني هو ... وتابع بألم : كنت أتمني أن أدفع عمري مقابل عرض حفلة واحدة من حفلات التعذيب علي الناس في التليفزيون ...

- الناس يعرفون الحقيقة جيدًا .

وأردف عادل لقد ظهر في المحنة رجال ذكرونا بخبّاب وبلال وعمار .

- لقد تعبت حتى أحسست مرارًا بأني انتهيت .
- لن تنتهي بإذن الله .
- كان الاعتراف أكبر ما آلمني .
- الاعتراف طبيعي ... وأنا أستطيع كشف أي تنظيم سري خلال أسبوع .

وبدت الدهشة في وجه محمود ، فقال : ولماذا السرية إذًا !؟ . وبدا أنه لم يقتنع بجواب عادل حينما قال له : هذه طبيعة التنظيمات في ظروفنا .

بعد صلاة العشاء ، سمعوا أصوات المدافع ، فعلموا بدخول شهر رمضان ، وتذكر كل منهم أهله وأحبابه ، فقال الشيخ محمد خير :

- ليس لنا إلا الصبر والاحتساب ، ومداراة العذاب بالبسمات ، وانتزاع البهجة من قلب الأحزان ... الآن جاء دور الإيمان ... فتبادل السجناء التهنئة ، وتناولوا الشاي ، وقال عبد الكريم : أنا لا أصدق بأني استمتع بكأس كبيرة من الشاي ... أخشي أن أكون في حلم شاعري ! فقال محمود : نحن في كابوس يا محترم .

فضحك الجميع ... ثم استندوا إلي جدران المهجع وبدأت حفلة أناشيد بقيادة المنشد عبد القادر ، الذيراح يردد :

كن مسلمًا ، وكفاك بين الناس فخرًا
كن مسلمًا ، وكفاك عند الله ذخرًا
فإذا حييت ملأت وجه الأرض بشْرًا
وإذا قضيت عرفت كيف تموت حرًا

* * *

أنت الربيع ، فأي شيء في الحياة إذا ذُبُلت
أنت المضاة ، فأين تنطلق الحياة إذا مللتَ
أنت الحياة ، فقمْ إلي الأنحاء وانظر ما فعلتَ
كن مسلمًا ، لا تخش إلاّ الله حتى لو قُتلتَ

وكانت ساعة من النشوة والسمو الروحي ، تجلت تصميمًا في العيون ، وانبساطًا في الأسارير .

أوشك الليل أن ينتصف ، وحرارة الجو جعلت بعض السجناء يتحللون من قمصانهم الداخلية ، وتوزع الجميع أماكن النوم في ثلاثة صفوف متداخلة متلاصقة من لحوم البشر ، وأطفئت الأنوار ، وتعالت من هنا وهناك بعض أصوات الشخير . وقبيل الفجر بساعتين ، راح السجناء يستيقظون تباعًا ، وانهمك بعضهم بتحضير السحور ، ودخل الآخرون في صلاة التهجد ، يستغرقون طويلاً في سجود خاشع ودعاء جريح غزير .

قال محمود للأمير عادل ، بعد أيام : حياة رتيبة وأشواق ذبيحة ، وأسئلة بلا جواب ، وقلق دائم مزروع كالشوك في صدور أهلينا الذين لا يعرفون عنا شيئًا ، ومستقبل غامض ، والله هو عزاؤنا الوحيد في هذه المحنة . فعقب عادل : الحياة سلسلة من الامتحانات المتواصلة ، والمؤمن يتلقي قدر الله بقلب ر ضيَّ وثغر باسم .

دروس الشيخ ، ونشيد عبد القادر ، وحكايات عبد الكريم ، هي الفاكهة الوحيدة في هذه الصحراء الشرسة ... وثمة نزاعات تنشب بين سجين وآخر بين الحين والحين ، حول أشياء تافهة ، يعقبها صلح وتسامح . وكان الأستاذ عادل يحاول تلطيف الجو دائمًا بقوله : نحن هنا أكثر من ثلاثين سجينًا ، نشكل خليطاً عجيبًا ، فبيننا طالب الثانوية العامة ، والطبيب ، وابن المدينة وابن القرية ، والقديم في التنظيم والحديث فيه ، والرهينة الذي لا علاقة له بشيء من هذه الأمور ، ولكن أخوّة الإسلام تجمعنا . ومن الطبيعي أن تكون هنا بعض المشكلات بسبب ظروفنا الصعبة القاسية ، فلنستعن عليها بحسن الخُلُق ورحابة الصدر ، ونحن لسنا ملائكة علي آية حال ... ولا تنسوا للحظة أن الله معنا .

بعد شهرين في المهجع الثاني ، فتح الباب سجان وصاح : نبيل ..

- نعم .
- تعال .
- إلي أين **!؟** .
- تعال .

واضطرب الجو ، فخرج نبيل ، بوجه شاحب ، وذهب في صحبة السجان ، وجلس السجناء واجمين ، فقال الشيخ محمد خير : ادعو لأخيكم بالثبات والرحمة . وقال الأستاذ عادل : الوقت يمر بطيئًا ، ولا نعلم أين أخذوه ، أو لماذا . ولما أعادوه بعد ساعتين ، هدأ القلق ، وتطلع الفضول ، وتكلم ثلاثون سجينًا معًا :

- خير إن شاء الله **!؟** .
- أين خذوك **!؟** .
- لماذا **!؟** .
- المهم أولاً ، .....

وقطع اللغط الأستاذ عادل بقوله ، هدوء ..... هدوء يا شباب ، ففي مثل هذه الفوضى لا يمكن أن نفهم شيئًا ... الرجاء الكف عن الأسئلة حتى ينتهي الأخ من حديثه ، ودعوه يحدثنا من البداية . قال نبيل :

- أخذوني من هنا : لا أعرف إلي أين ، خشيت من تحقيق جديد ... فتشوني جيدًا ، وقادوني في سيارة الجيب المغلقة إلي فرع الحلبوني ، ووضعوني في ساحة صغيرة مسيّجة بالأسلاك الشائكة ، فانتظرت أكثر من ربع الساعة في حالة من القلق والخوف ، أدخلوني غرفة المقدم .

وصاح سجين : غرفة المقدم **!؟** .

فامتعض الآخرون من المقاطعة ، وتابع نبيل :

.. نعم ، ورأيت هناك أمي وزوجتي وطفلتي الصغيرة ، وسلمت عليهما ، وقبلت الطفلة ... وعاودته الأطياف فاغرورقت عيناه بالدموع ، وغالب غصصًا ملأت حلقه ، وساد تأثر وخشوع ، وتابع : فسألوني عن صحتي .. فقاطعه أحدهم : هل حدثتهم عن التعذيب ؟ . وقال آخر : هل حدثتهم عن القبة الخانق ، والحر الشديد والعدد الكبير ، لينقلوا الصورة إلي الشعب **!؟** . وقال ثالث : رجاء يا شباب ، بلا مقاطعة . وقال رابع : فعلاً .

وقال عادل : الرجاء يا إخوة تأجيل الأسئلة حتى يتم الأخ حديثه ، وبعدها اسألوه عما تريدون . وتابع نبيل : كانت المراقبة شديدة جدًا . فقال سجين كمّ عنصرًا كان يراقبك ؟ واعترض ثان : أف ... ما هذا **!؟** . فتابع نبيل : راقبني ثلاثة عناصر ، واستمر اللقاء حوالي ثلث الساعة .

- ثلث ساعة فقط **!؟** .

آخر : سبحان الله كم تحبون المقاطعة ؟

ثالث : والتعليق يزيد الطين بلّة .

رابع : فعلاً .

وتابع نبيل : ثم قالوا لنا انتهت الزيارة ، فأخرجوا أهلي وأعادوني إلي هنا . وساد اللغط : فقال عادل : الأسئلة بالدور ... لنبدأ من اليمين .. تفضل أنت .

سجين : هل أعطيت أهلك رقم هاتفنا ليخبروا أهلي **!؟** .

نبيل : لا أعرف رقم هاتفكم .

وضحك الجميع ، فقال سجين آخر : هل ذكرت لهم بأني معك هنا ، حتى يخبروا أهلي ؟ .

نبيل : لم يكن هناك مجال لذكر أسماء .

ثالث : ما أخبار البلد ، والشباب ، والعمليات **!؟** .

نبيل : لم نستطع الحديث في هذا الموضوع .
وساد صمت ثقيل ، فقطعه أحد السجناء بقوله : وجودنا هنا ظلم في ظلم في ظلم ... فعقب عليه سجين آخر مازحًا : الله يفتح عليك . ابتسم عادل وقال : اللعبة مكشوفة ، السلطة أكثر الناس معروفة بعدالة دعوتنا ، ولكنها – باختصار – تريد تأديب الشعب بنا .
أصبحت الزيارات هي المتنفس الوحيد للسجناء، حيث يعود أحدهم من الزيارة حاملاً شيئًا من الاطمئنان ، وكثيرًا من ألوان الأطعمة الشهية ، وحفنة لا بأس بها من المعلومات والأخبار يتم تهريبها بوسائل أجاد السجناء اختراعها ، والاتفاق علي رموزها ، وأكثرها يتم تهريبه في أماكن غريبة من الأطعمة ، كأن تكتب علي ورقة سجائر ، وتوضع في ذيل البصل الأخضر . والحق أن السجن كان صدمة ، وتجربة جديدة علي أولئك السجناء ، حيث تعرضت حياة كل منهم إلي انقلاب جذري ومسخ تام ، وزاد من قسوة الأمر تفاوت المستويات الثقافية والاجتماعية ، وما ينجم عن ذلك من اختلاف في طريقة التعامل والتفاهم ... وكان الشيخ محمد خير يرصد الظواهر السلبية في المهجع ويعالجها في خطبة الجمعة في المهجع نفسه ، بأسلوب بالغ التأثير ، فما إن تنتهي الصلاة حتى يتعانق السجناء وهم يبكون ، وكأنهم يغسلون بدموعهم ما علقفي صدورهم من مثالب وغبار .
حل المساء كما يحل مساء كل يوم ، وكان شريط يتكرر عرضه كل مساء ، بشكل أو بآخر ، كلما حان موعد النوم المتفق عليه بالتصويت ، وهو العاشرة ليلاً ، فما إن تشير الساعة إلي ذلك الوقت ، حتى يشتد الضجيج بشكل لا يستطيع فهمه أحد . قال الأمير الأستاذ عادل : الساعة الآن العاشرة ليلاً ، وقد حان وقت النوم ، فالرجاء إطفاء النور .
اضطجع الجميع ، وبدأت الأحاديث الجانبية همسًا ، ثم ما لبثت أن أصبحت ضجيجًا لا يطاق ، فصاح سجين :
- أمير .. ما هذه الأحاديث الجانبية !؟ . ألن يدعونا ننام !؟ .
وقال ثان : هدوءًا يا شباب .
ولم يستجب أحد قال ثالث ضجيجًا يا شباب . وضج الجميع بالضحك ، فقال الأمير : ما هذا يا أخ ؟ . رد الثالث : لأننا كلما قلنا هدوءًا يزداد الضجيج ، فقلت في نفسي نقول : ضجيجًا ، عسي أن يأتي الهدوء . وعادت موجة الضحك ، فقال سجين رابع : قليلاً من الذوق يا إخوة . رد خامس : رجاء ، لا أحد يوجه الأوامر غير الأمير . وأضاف سادس : خلّصنا يا أمير .
فقال الأمير : يا جماعة ، كلنا شباب ، ولا حاجة للملاحظات ... وساد هدوء، ولكن أحد العفاريت أراد أن يفجر موجة الضحك فقال :
- (إي) والله عيب .. انظروا إلي شواربكم ولحاكم ما أطولها ، ومع ذلك تشاغبون كالأطفال !؟ ، وعاد الضحك والضجيج ، وتوالي السجناء :
- عدنا إلي الضجيج .
- الحق علي الأفندي ، أبي الشوارب واللحى .
- بعض الناس يريدون تخفيف الضجة ، فيزيدونها بملاحظاتهم
- يا جماعة ما أن تتركونا ننام ، أو أغني بأعلي صوتي طوال الليل .
وعاد الضجيج والضحك .
- طبعًا ، هناك من ينام في النهار ليزعجنا في الليل .
- يا سادة ، يا (أفندية) ، أليس هناك اتفاق علي موعد النوم !؟ .
- سيدي ... شعب عربي .
- قسمًا بالله ، لن أترك أحدًا ينام بعد صلاة الصبح أو في النهار ، وافعلوا ما تشاءون .
- هذه التهديدات مرفوضة يا محترم .
- لو لم نكن في السجن لكنت ....
- ماذا كنت ستفعل !؟ .
- صلوا علي الحبيب يا جماعة .
- كفي ... كفي ... كفي ...
- والله إن هذا لأمر مزعج جدًا ، أفيكل ليلة سيتكرر هذا الفيلم !؟ هذا جحيم .
- ومن أين يأتي النعيم إلي هنا !؟ .
- اللعنة علي حزب (.....) ، سبب البلاء .
- ألف لعنة ولعنة .
- خلّها مليون لعنة ، (مادام صارت ، وصارت) .
- قولوا ما شاء الله من اللعنات ، ودعونا ننام .
- وقال الأمير : هل انتهينا !؟ .

فساد هدوء طويل ، ثم همس سجين لجاره :
- الحق علي (زيد) .
- ولكن عمرًا تطاول في الكلام .
- إنه ينطلق من حقه .
- أليس هناك شيء فوق الحقوق !؟ .
- صحيح ولكن ...

في تلك الأجواء ، ألف أحد السجناء قصيدة ساخرة مطلعها :

في المهجع الثاني حياتي ملأى بشتى المزعجات

بعدما تناول الجميع إفطارهم قال الشيخ محمد خير :
- يا إخوة ، ما هذه الحال !؟ الناس يحسبون أننا هنا نقوم الليل ونصوم النهار ، ونتعامل بأخلاق الإسلام ، ونقضي أوقاتنا بالعلم والذكر والحفظ والدعاء .

قال محمود : لو أن أحدًا التقط لنا شريطًا سينمائيًا وعرضه علينا بعد حين ؛ لضحكنا من تصرفاتنا طويلاً . فقال عادل : أرجو ألا نبالغ في الأمر ، فالجو الخانق ، والإرهاق النفسي ، والقلق ، وضيق المكان ، وسوء الأحوال ، أشياء تجعل أيًا منا ينفعل لأتفه الأسباب . فقال سجين ظريف : بل من غير سبب إطلاقاً .

وكان كثيرًا ما يشب الخلاف حول الموقف من العمل العسكري ، وجدواه ، ما بين مؤيد ومعارض ، ومحايد ، حتى كان يوم من أواخر أيام رمضان ، ألقي فيه أحد السجناء ، وهو يقوم بالسخرة ، ورقة صغيرة ، فما إن فتحوها حتى أحدثت انفجارًا كالقنبلة ، حيث قال الأمير عادل :
- لقد استشهد خمسة من إخوانكم في إحدى ليالي هذا الشهر المبارك ، هم : رامز ، وهمام ، وعصام ، وياسر ، وإسماعيل .

وسرعان ما انزوى كل سجين علي نفسه ، وساد صمت مصحوب برهبة وخشوع : وانطلقت دموع حبيسة ، وعلا نشيج مكتوم ، فقال الشيخ محمد خير :

قوموا للصلاة علي إخوانكم ، صلاة الغائب ، وادعوا الله لهم بالفردوس الأعلى ، واسألوه النصر أو الشهادة ، وكانت صلاة تضج بالنحيب .

وأقبل العيد ! عيد في السجن !؟ .

أحيا السجناء ليلة العيد بالصلاة والدعاء والذكر ، وفي الصباح أدّوا صلاة العيد في قبوهم الكئيب ، وخطب الشيخ محمد خير خطبة العيد .. فأبكي العيون والقلوب ، وغسل الصدور ، وحلّق بالأرواح ، حتى علت الحناجر بالنشيج ، وأحس السجناء بأنهم يعيشون في الجنة ، وليس في ذلك السجن العربيد . ولم يبق سجين لم يبك حين قال الشيخ :

ما لكم أيها الإخوة !؟ أترفضون المحنة في سبيل الله !؟ أترفضون قدر الله !؟ أترفضون ثواب الله وجنة الله !؟ ها أنتم أولاء هنا ، آمنون حتى في السجن ... أتستعظمون محنتكم !؟ إذن غاذكروا أخت رامز التي فقدت زوجها ، وأخاها في أيام قليلة ... كيف تستقبل العيد !؟ إن أهلكم لم يفقدوا الأمل بعد .

وبعد الصلاة اصطف السجناء ، وعانق كل منهم أخاه عناقاً حارًا ، وبكي في كل عناق ، دون أن يدري سببًا للبكاء ... ثم جلسوا يتنهدون ، يجمعهم عالم واحد ، وتبادلوا التهنئة : تقبل الله ... كل عام وأنتم بخير ... سامحني يا أخي ... وقام بعضهم فأخرج ما كان قد ادخر من حلوي الزيارات فوزعها علي إخوانه ، وفي خشوع لا مثيل له ، قال الأمير عادل : هذه هي المرة الثانية التي أدخل فيها السجن ... في المرة الماضية بقيت هناك ثلاثة أعوام ، ومر عليّ العيد ست مرات ، واليوم ، وقد صار عمري ثلاثة وثلاثين عامًا ، مرَّ عليّ فيها أكثر من ستين عيدًا ، ولكن ، وأقسم بالله ، لم أشعر بسعادة في عيد من الأعياد ، كسعادتي في هذا العيد ... لا أعرف لماذا !؟ .. حقاً لقد ابتعدت عن أمي وأبي ، وزوجتي وطفلتي وإخوتي ... ولكني أجد فيكم عوضًا عن أسرتي ... أنتم إخوتي في الله ... أنتم أمي وأبي وإخوتي ومستقبلي ... وبكي ... فأبكي الجميع .

مرّ شهران لا جديد فيهما غير إضافة السجينين أمين أصفر وعدنان شيخوني ، وظل جو المهجع حارًا خانقاً ، وكان الذي يشعر بضيق في التنفس ، يذهب ليستنشق الهواء النقي في دورة المياه ! .. واستيقظ السجناء ذات يوم ليدوا أحدهم قد أغمي عليه لقلة الأكسجين ، وفساد الهواء ، فحزنوا وغضبوا وخبطوا علي باب المهجع ...

جاء السجان فواز غاضبًا : ماذا تريدون ؟!

رد أمين أصفر : نريد حقنا في التنفس .
- لا يوجد تنفس .
- أتظن نفسك مسجونًا في سويسرا !؟ .
- نعم .

- طظ .

وصفق الباب في وجهه ، ومضي.

وأضربوا عن الطعام حتى يقابلوا مدير السجن ، فلما جاء ، طالبوه بالخروج للتنفس مرتين في كل يوم ، أسوة ببقية السجناء . وحاول أن يثنيهم عن قصدهم بالترغيب والترهيب ، فرفضوا فك الإضراب ، فاستجاب لطلبهم . وفي باحة التنفس ، التي لم يزد طولها علي ثمانية أمتار ، أحس الجميع بخدر لذيذ يتسرب فيهم ، وقال محمود : ما أروع الشمس ! وما أطيب النقي ! ؟ وتفحص السجناء أجسادهم فوجدوها مليئة ببقع صفراء دائرية فتساءل أحدهم : متى تزول هذه البقع من أجسامنا !؟ . رد سجين : لقد تكونت نتيجة الضوء الأصفر ، وغياب الشمس عن أجسامنا ... وستزول مع الزمن . وقال الأمير : تعالوا نقم ببعض الحركات الرياضية . استجاب الجميع إلا واحدًا ، فقد انزوي في أحد الأركان ساهمًا ، اقترب منه عادل وسأله :

- لماذا لا تشاركنا في الحركة ؟
- أفكر ..
- متى سيكون الفرج ؟
- أفكر بأهلي ، أمي وأبي وزوجتي وإخوتي ، إنهم جميعًا يتعرضون لعقاب ظالم ... لا يعرفون شيئًا عني ... إنهم يتعذبون بالقلق والانتظار ..
- فوض أمرك إلي الله .
- لا إله إلا الله ... وأفكر أيضًا بالفائدة التي تعود علي هؤلاء الطغاة من حبسنا في أقبية لا تصلح زرائب للحيوان ..

شده عادل من يده ، وقال :

- حاول أن تنسي ... واحتسب مصائبك عند الله ، فلا أحد يملك أن يكشف عنا وعن أهلينا الضر إلا هو .

صار الخروج إلي باحة التنفس نزهة مرتقبة ، واتجه تفكير محمود للهرب من السجن عن طريق باحة التنفس ، لم لا !؟ صحيح أن ارتفاع جدارها يبلغ خمسة أمتار ، وفوقه متر من الأسلاك الشائكة ... ولكن الإنسان لن يعدم وسيلة للتغلب علي هذه الصعوبات . وبدت له الفكرة مغرقة في الخيال ، ومع ذلك راح يناقش بها بعض أصدقائه ، ووجدت الفكرة صديّ مقبولاً ، ربما من قبيل مطاردة اليأس ، والتعلق بأمل مهما يكن بعيدًا . وقال لعادل : هناك طريقة أخري للهرب ... صعبة ، وتحتاج إلي وقت طويل ، ولكنها طريقة مناسبة لقتل الملل واليأس . ابتسم عادل وهو يتصنع الاهتمام ، وقال : كيف ؟ .

- نحفر تحت الأرض ، من بين المجاري ... الفكرة تبدو مضحكة ، ولكني شاهدت مثلها في فيلم (الهروب الكبير).

وتابع ، وهو يبتسم من جنون خياله : في الفيلم استطاع السجناء الهرب ، ولكن أعيد اعتقالهم بسرعة ... ومهما يكن من أمر ، فعلينا ألاّ نكف عن التفكير في الهرب ...

- هذا تفكير عادي لكل سجين .
- لا أحب الموت علي حبل المشنقة .
- ومن يحب ذلك !؟ .
- أفضل أن أموت وأنا أهرب علي أن أموت علي حبل المشنقة ... أحب الشهادة ، وأكره أن أنطفئ كعود ثقاب . كان بإمكاني تفادي الاعتقال بإجراءات ممكنة وسهلة ، لكني لم أفعل .. ربما كان ذلك أكبر أخطائي ... وربما لا أستطيع تفادي أثره ... لكني ، لم أكن أتخيل أن الأوضاع هنا علي هذا الشكل من القسوة والقذارة .
- لو كنت تعلم ، أكنت تفعل شيئًا ؟! .
- بالتأكيد ... ربما ... لا أدري ...

مرت ثلاثة أشهر وهم في المهجع الثاني ... الأيام تكرر نفسها ، والثورة تشتد في الخارج ، والسلطة تبحث عن ضحايا ... وجاءهم السجان فواز يقول : جهزوا أنفسكم للخروج .

- إلي أين !؟ .
- لا أحد يدري .

ووجدوا أنفسهم يقادون مقيدين إلي محكمة أمن الدولة ... محكمة سرية ، لا يحضرها غير عناصر الأمن ... وسألهم القاضي عما ورد في ملفاتهم من اعترافات ، فقال الأستاذ عادل :

لقد وقعنا جميعًا علي ملفاتنا دون أن تتاح لنا فرصة لقراءتها ، وإن ما ورد في التقارير كان اعترافات بأمور لا أصل لها ، كوسيلة وحيدة للخلاص من تعذيب جهنمي ، ولا ريب أن المحققين قد ضخموا حجم الاعترافات ليثبتوا لسادتهم مدي كفاءتهم وإخلاصهم .

ناداه سجان من كوة الباب : محمود نعيم ..

- نعم .
- جهز نفسك .

- إلي أين !؟ .

وغاب السجان ، وخلال دقائق كان محمود جاهزًا ، وبدا القلق واضحًا في وجهه ، فقال الأستاذ عادل : خير إن شاء الله . في صالة السجن فتشوه جيدًا ... أهو تحقيق جديدًا ؟ أم نقل إلي سجن آخر !؟ أم زيارة !؟ ولم لا !؟ ألا يمكن أن يسمحوا لأهلي بزيارتي بعد خمسة أشهر من اعتقالي !؟ لقد تمتع معظم السجناء بزيارة إلاّ أنا ! . وقال بصوت راعش : إلي أين !؟ . فلم يرد عليه أحد . ثم اقترب منه أحدهم وهمس بحذر شديد : زيارة .

فاجأته الكلمة ... ابتهج ، تأثر ، اشتعلت في كيانه نيران أشواق حبيسة ، ذكريات دامعة ، شريط مضطرب لحياة حافلة بالحلو والمر ، ورفع بصره ، فوجد الشمس تضحك في الضحى .. بعد قليل أري أمي ... اللحظات تمضي ببطء مغيظ ، الدقيقة أصبحت ساعة ... ماذا أقول لأمي !؟ لا شيء ، سيحتبس اللسان ، وتتكلم العيون ، وأمرغ وجهي براحتيها ، وألثم قدميها ... الله وحده يعلم كم قاست وعانت وبكت وأرقت ودعت وقرأت وتأوهت وذهلت ويئست وتفاءلت ... إنها أم ... إنها أمي .

وفي سيارة (جيب) مغلقة ذات قفص حديدي من الداخل نقلوه إلي سجن الحلبوني ، ومن خلال الشبك المطل علي (كابينة) السائق ، مد بصره ، فرأي الشوارع والسيارات ، والمشاة والمحلات التجارية ... حياة تتحرك ماضية في سبيلها لا تكترث لأحد ... وشد ما تاق إلي هذه الحياة ... إلي الحرية .. هؤلاء الناس يذهبون ويعودون حيث يريدون ومتى شاءوا ... يزورون الحدائق والأقارب والمسجد والسينما ويمارسون العمل أو الدراشسة ... لكل منهم مطامح وأمال وفي دربه عقبات وأشواك ، وفي رأسه أفكار تمتد إلي اللانهاية ... أما نحن !؟ ... دخلت السيارة الفرع الجديد .. وقال له سجان : أنزل .

وهاجت في صدره عواصف الشوق ، وغمرته أمواج السعادة ، وفي مكتب رئيس الفرع ، التقي أمه : أمي ... وراح يقبل يديها بشغف بعد حرمان طويل ... وقبلته وضمته إلي صدرها كطفل صغير ، وارتمي علي قدميها يريد تقبيلهما فتراجعت مذهولة مذعورة لا تدري ما تقول ... وقبّل خاله ، وأخاه الصغير وأخته الصغرى . الكلام الكثير تحبسه الأشواق ، والوقت قصير ، والعيون تتبادل أحاديث صامتة غزيرة مبينة ... وقال :

لم أزل مشغول الفكر بكم ... كيف تعيشون !؟ من يرعاكم !؟ أيَّ محنة قاسية تعانونها ؟ .

قالت الأم : الله كبير ... اهتم بنفسك أنت ، ولا تنشغل بنا .. نحن بخير ... حضرنا إلي هنا خمس مرات ولم نستطع رؤيتك ، لقد عذبونا كثيرًا ، المهم أننا رأيناك أخيرًا ... كيف حالك !؟ كيف تعيش !؟ ماذا قاسيت من هؤلاء الظلمة ... لقد طرقنا كل باب من أجلك ، ولكن ...

- لأنها محنة في سبيل الله ، فهي تهون .

وجلس يضم أخويه إلي صدره بحنان جم ، ويتلمس الخدود ، ويشد علي الأيدي ، وكأنه يعيش حلمًا جميلاً يخشي أن يفتقده في لحظة صحو . قالت الأم وهي تشير إلي رجل بدا عليه أنه لم يتجاوز الأربعين إلا قليلاً : إن قريبنا ... الذي استطاع تأمين الزيارة ، هو من عناصر الأمن كما تعلم ، وهو يريد أن يتحدث إليك بأمر ، لنري رأيك فيه . فقال الرجل : الحمد لله علي سلامتك ، محنة وتزول ، وتعود قريبًا إن شاء الله إلي أهلك . ثم تنحنح قليلاً ، وتابع .

يا سيد محمود ، لعلك لا تعلم بأن أخاك قد التحق بالشباب ، ونحن طلبنا من أمك أن تسلمنا إياه ، أو ترشدنا إلي مكانه لاستجوابه وإطلاق سراحه فورًا ، ولكنها رفضت وطلبت مقابلتك أولاً ، وقد كنت وسيطًا في الموضوع ، وبسبب هذا حصلنا لأهلك علي أمر بالزيارة من سيادة المقدم علي ، الذي وعدني وتعهد لي إن سلّم أخوك نفسه بأن لا يضربه أحد ، وأقسم أن يطلق سراحه فورًا بعد استجوابه ... وأنت تعلم بأن الشباب طيبون متحمسون ، ولكنهم تورطوا ووقعوا في مصائد غيرهم ، ولا تزال أمامهم فرصة .

نظر محمود في الوجوه التي ترقب رد فعله باهتمام ، وكان رئيس الفرع يجلس بعيدًا في صدر المكتب يتشاغل ببعض الأوراق أمامه ، فسأل محمود : وأخي !؟ ما رأيه !؟ .

قالت الأم : إنه يرفض الاستسلام . فأخذ نفسًا عميقًا ، وقال : الحمد لله ... ثم التفت إلي ذلك الرجل ليطلب منه طلبًا استفزازيًا مستحيلاً ، فقال : أخرجوني من هنا لأسلمكم أخي . ولم يكترث فيما يكون لسخريته الغضوب من أثر ، وتابع الكلام وهو ينظر إلي أمه : إنهم كذابون ، مراوغون ، واحذروا أن يخدعوكم ... لقد عانيت من جراحهم أربعة أشهر بلا علاج ، إنهم ألعن من الشياطين ألف مرة .. فقالت : حتى المقدم علي !؟ .

أجابها بغيظ : إنه أكذب من مسيلمة الكذاب ... قولي لأخي وللشباب جميعًا ، ألاّ يستسلموا مهما تكن الظروف ... أن يقاتلوا بالرصاص ، بالسكاكين ، بالعصي ، بالحجارة ، بالأظافر ... بأي شيء ... والذي يعجز عن ذلك ، فليرحل خارج البلاد لينجو من هذا الجحيم الكافر .. ولو كنت أعلم بأني سألقي هنا معشار ما لقيت ، لما تركتهم يستلمونني إلاّ جثة هامدة . فقال الرجل : إذا كان الأمر كما تقول : فأنا أنسحب ، وأنتم أحرار .

قال الرائد : انتهت الزيارة .

فقالت الأم : ياله من لقاء قصير ، بعد فراق طويل !؟ .

وكان وداع .. عناق ، وقبلات ، ودموع ، ولا أحد يعلم إن كان هناك لقاء آخر ، أم لا . وذهب أهله ، ومن ورائهم قلبه ، وقال له الرائد وقد خلا المكان : اجلس يا محمود . وراح يحدثه بهدوء ولطف :

- ما رأيك بالسجن !؟ .
- إنه جحيم الدنيا .

ضحك الرائد ، وقال : أقصد سجننا ... ما الذي تري له من مزايا ، أو مثالب !؟ .

- لا يوجد سجن ذو مزايا .
- والمثالب !؟ .
- إنكم تمنعوننا من أبسط حقوقنا ... من أشياء تافهة جدًا ... الورق ، والأقلام ، والكتاب ، والجريدة ، والزيارات المنظمة ، وشراء الحد الأدنى من الأطعمة كالجبن والزيت والزعتر ...
- ألسنا نأتيكم بالطعام الكافي !؟ .
- بصراحة .. لا ، فالطعام ردئ ، وقليل .
- لا تنس نك في سجن ! .
- ولكننا بشر ... أرواح ...
- حسنًا ، سأبحث هذه الأمور مع مدير السجن .
- ومصادر القراءة !؟ .
- هذه ممنوعة ...

ثم وهو يبتسم ، وأنتم مثقفون أصلاً ، فما حاجتكم إليها !؟ .

وقرع الجرس ، فدخل الحاجب ، فقال الرائد : خذه . بالطريقة نفسها أعادوه من حيث أتي ، استقبله أصحابه بتلهف ... وبدأت الأسئلة تنهال عليه من كل اتجاه :

- كيف أخذوك ؟ .
- هل فتشوك جيدًا ؟ .
- من جاء لزيارتك ؟ .
- ما أخبار المجاهدين ؟ .
- هل ذكرتهم بأن يمروا بأهلي ؟ .

وجلس يحكي لهم بهدوء ، وقد تنفس الصعداء ، لأول مرة منذ نصف عام .

بعد أيام نُقل نصف السجناء في المهجع إليسجن القلعة ومعهم الشيخ محمد خير ، والمنشد المرح الظريف عبد القادر ، وترك الراحلون فراغًا كبيرًا ، لم يعوض عنه شيء إلا ما كسبه الباقون من خفة الزحام . وبدأت الأمور تتحسن ، وقال الأمير عادل : لقد تلاشت المشكلات من المهجع نهائيًا بعدما خلف الزحام الشديد وهانحن نعيش حياة السجناء بأخلاق الملائكة . غير أن الأمر لم يدم طويلاً ، فبعد أسبوعين ، تم إفراغ المهجع الثاني لمعتقلين جدد ، ونقل محمود وأصحابه إلي المهجعين الخامس والسادس .

أصبح عدد السجناء في المهجعين الخامس والسادس يربو علي ستين سجينًا ، من بينهم المعتقلون من قيادات الجماعة ، وكانت مساحة المهجع الواحد لا تزيد عن عشرين مترًا مربعًا ... وبالرغم من الزحام الشديد ، واشتراك المهجعين في المرافق إلاّ أن الجو كان أكثر هدوءًا وانضباطًا ، بسبب وجود عدد ممن تتراوح أعمارهم ما بين الأربعين والخمسين ... وكان كلا المهجعين حافلاً بالأنشطة العلمية ، من دروس في الفقه والتفسير والحديث والأدب واللغات ، وكانت الأوراق والدفاتر والأقلام متوفرة إلي حدٍ ما ، إضافة إلي الجرائد الحكومية وبعض الكتب ، مما يخفف من وطأة المعاناة الشديدة للسجناء . ومع ذلك ، فلم تخل الأجواء من خلافات تنشب بين الحين والآخر حول قضايا تافهة ، وكانت تنشب بعض الخلافات بين المهجعين فكثيرًا ما يدور في المهجع السادس كلام ، يبدأه أحد السجناء :

- المهجع الخامس أشعلوا الموقد اليوم ساعتين زيادة علي حصتهم المقررة ! .
- وخنقونا برائحة البطاطا المقلية .
- ينبغي وضع حد لمثل هذه التجاوزات .

بينما يبدأ أحد سجناء المهجع الخامس هجومه بقوله :

- المهجع السادس استهلكوا معظم الماء اليوم ، مع أن المياه مقطوعة ! .
- إنهم يسرفون بشكل غير مقبول ! .
- طبعًا – يا سيدي – فالشباب أكابر !
- سبحان الله ، ألا يفكرون بغيرهم ؟ .
- وقد شغلوا الحمام طوال اليوم ولم يتركوا لنا دورًا ! .

- لا يمكن السكوت عن هذه الأوضاع إلي مالا نهاية ! .

وقال محمود للأستاذ عادل :

- بالرغم من تحسن الأوضاع هنا ، عما كانت عليه في المهجع الثاني ، إلاّ أن الكثير من المشكلات والمثالب والمنازعات لم تختف تمامًا .
- نحن في سجن .
- ولكننا إخوان !؟ .
- والإخوان بشر .

مما أثار استغراب محمود ، ما علمه فيما بعد ، بأن أعضاء القيادة لم يتعرضوا لأي تعذيب جسدي ، حتى إن بعضهم لم يخضع لتحقيق .. فقال لعادل :

- ألا تستغرب هذه الظاهرة ؟ .
- نوعا ما .
- كيف !؟ .
- لعل السلطة لم تكن مهتمة في البدء بأكثر من اعتقال القيادة ، ظنًا منها بأن ذلك يعني نهاية الجماعة ... ولكن قل لي : لماذا تفكر في هذا الأمر !؟ .
- لماذا طلبوا منا أن نموت تحت التعذيب قبل أن نعترف بحرف واحد ! .

قال عادل وهو يبتسم : الأفكار النظرية شيء ، والواقع العملي شيء آخر .

توالت العمليات في الخارج ، وكانت الأنباء عنها تتوالي باستمرار ، بواسطة الإذاعة والجريدة والرسائل المهربة وبعضالسجانين ، وبالرغم من التفاف الأكثرية حول الثورة والعمل العسكري ، إلاّ أن الخلافات لم تتلاش تمامًا ، وظلت تصدر عن بعض المعتقلين انتقادات لهذا الخط الذي يقود الجماعة والبلد إلي مصير مجهول لا يعلم مداه إلاّ الله ... وإن كانوا في الصلاة يدعون للمجاهدين بالثبات والنصر . وحملت إليه الأخبار نبأ استشهاد أخيه فخر الدين ابن الثمانية عشر ربيعًا ، فتلقي أكبر صدمة في حياته بالصبر والتسليم ، واستشهد صديقه أيمن ، وهو أمر كان يتوقعه ، أما أبو اليسر فقد اعتقل بعد إصابات بالغة فقد فيها عينه وذراعيه ، وقضي في المنفردة بضعة شهور ثم حكم بالإعدام ونال ما يتمناه : الشهادة في سبيل الله . واشتدت ضربات المجاهدين ، وازداد عنف السلطة وشراستها ، وبلغت الهجمة الإعلامية أشدها ... التليفزيون والإذاعة والجرائد والصحف تشن حملات مكثفة ... وفي رسالة مهربة قرأ أحد السجناء :

الشعب كله معكم ، بماله ودمه ، وإعلام السلطة يتلقاه الناس بالتندر والسخرية والشماتة ... فاصبروا ، فإن الله معكم ، والنصر حليفكم .

قال الأستاذ فاروق وهو أحد قادة الجماعة بعد عودته من استدعاء مفاجئ :

ذهبت مع الأستاذ عبد الله والتقينا الأخ الأستاذ أمين يكن ، وهو – كما تعلمون – أحد كبار قادة الإخوان السابقين ، وهو مكلف من قبل الرئيس نفسه بإجراء وساطة بيننا وبين السلطة . فقال سجين : لقد انهارت السلطة .

وتابع الأستاذ فاروق : قدمنا خمسة طلبات ، هي الحد الأدنى الذي يمكن أن نرضي به ، والحد الأعلى الذي يمكن أن تقبل به السلطة ... وهي :

١ – إصدار عفو عام عن السجناء والملاحقين .
٢ – إطلاق الحريات السياسية ، وحرية الأحزاب .
٣ – إيقاف التحديات لمشاعر المسلمين في أجهزة الإعلام وممارسات السلطة .
٤ – إلغاء التمييز والتسلط الطائفي .
٥ – إعادة المدرسين المبعدين عن التعليم إلي وظائفهم .

ثم تابع : وقد وعدنا خيرًا ، وعلي هذا الأساس ، أمروا بالإفراج عني وعن الأستاذ عبد الله ، لتهدئة الأمور في الخارج ، علي أن تتم عملية الإفراج عن باقي المعتقلين سريعًا .

واستمرت الإفراجات بطيئة ، ثم توقفت ، وصعّد المجاهدون عملياتهم ، أما الذين خرجوا لتهدئة الأمور ، فإنهم سرعان ما غادروا البلد ، حين فشلت المهمة .

استمرت المحاكمات ..... وفي هذا المساء تم إحضار سبعة عشر معتقلاً ، من بينهم محمود ، إلي المحكمة ... كانت قاعة المحكمة كبيرة ، تتوسطها منصة فخمة ، يجلس وسطها القاضي فائز النوري ، وحوله أربعة مستشارين ، أحدهم برتبة عقيد ، وإلي يمينهم المدعي العام ، وإلي الأسفل يقف أربعة محامين ، يقابل قوس المحكمة إلي اليمين قليلاً قفص وضع فيه السجناء . بعد قليل صاح القاضي : أمين أصفر . وقف أمين أمام المنصة ، فقال القاضي :

أنت متهم بجرائم عديدة ... القتل العمد ، وإشعال الفتن ، ومحاولة قلب نظام الحكم بالقوة ... وفي ملفك اعترافات وقّعت عليها ، وكلها تدينك .

فقال أمين : هذا كلام منتزع تحت التعذيب ، لا قيمة له في ميزان العدالة ، بما في ذلك التوقيع ... لقد اعترفت لأنجو من التعذيب ، بأشياء لم أفعلها ، والمحققون يعرفون ذلك ، وبعض عمليات الاغتيال وردت في عدة اعترافات ، مما يدل علي أن ما بين أيديكم من ملفات واعترافات كذب في كذب . فرد القاضي بعصبية : لولا التعذيب لم تعترفوا بشيء ... هل عندك أقوال أخري !؟ .

- عد إلي مكانك ...

ثم صاح : عبد الغني .

ووقف أمامه شاب طويل نحيل وديع لم يبلغ من العشرين من عمره فوجه إليه الاتهامات نفسها ، فضحك الفتي وقال : يا سيدي أنا لا علاقة لي بالإخوان ، ولا التنظيم ولا أعرف معني هذه الكلمات ، التي سمعتها لأول مرة من أفواه المحققين .

- ولكن إضبارتك تقول بأنك منظم ، مشارك في العمليات ، وفي حوزتك سلاح ...
- أنا لا أدري ماذا تقول إضبارتي ، لأني لم أكتبها ، ولم أقرأها ... كل ما أعرفه أني وقعت عليها بعد فلقة ساخنة ...
- هل من أقوال أخري !؟ .
- نعم يا سيدي ، فإن كلامي لم ينته بعد ، وكنت أود أن أقول ، بأنك أنت نفسك لو وضعوك في الفلق أو الدولاب أو تحت لسع الكهرباء ؛ لاعترفت بأنك أخ لموشيه ديان .

ضحك الجميع إلاّ القاضي ، فقد كان هو الآخر أعور ، وقال بعد صمت غير متوقع : لا ، لن اعترف بذلك .

واستمر المتهمون بالمثول أمام المحكمة ، وتابعوا تنصلهم من التنظيم ، وإنكارهم لاعترافاتهم المنتزعة تحت التعذيب ، وقال شاب يدعي هيثم : أنا أرفض الكلام إلا في محكمة علنية يحضرها من يشاءوخاصة أهلي ... أنتم تزعمون بأننا مجرمون ، فلماذا تخافون من محاكمتنا علنًا ليري الناس صدق أدعائكم !؟ .

قال القاضي : المحكمة علنية ، انظر إلي الحاضرين ، إنهم يتجاوزون الخمسين رجلاً .

- إنهم جنودكم وأعوانكم وحراسكم والسجانون ! نحن نريد جمهورًا من الناس العاديين ، وأولهم أهلنا .
- عد إلي مكانك إذن .

ثم صاح : صدَّيق .

وتلا عليه موجز ملفه ، وهو الاتهامات ذاتها الموجهة لكل معتقل ، فقال صديق : هذه ليست محكمة ، هذه تمثيلية .. مسرحية .. والأحكام جاهزة ، والكلام لا معني له .

- عد إلي مكانك .

ثم صاح : محمود نعيم .

- حاضر .

وتلا عليه لائحة الاتهام ذاتها .

فقال محمود : أيمكن أن أتكلم براحتي ؟ .

- بالتأكيد .
- أنا عنصر في جماعة الإخوان منذ سبع سنوات ، ورغم أن والدي – رحمه الله – كان من الإخوان ، إلاّ أنني اخترت دربي بعيدًا عن تأثيره ، فقبل ذلك انتسبت إلي شبيبة الثورة ، وأصبحت رفيقًا ، فرأيت هناك الانتهازية والعبث واللاأخلاقية ، وأنا إنسان لا أستطيع الكذب علي نفسي ولا علي الآخرين ، فتركت الشبيبة ، وأطلعت علي فكر الإخوان ودرسته فاقتنعت به ، والتزمت بالجماعة ، وأنا أعرفسلفاً ما يكمن في طريقي ، وأنا علي استعداد لدفع الثمن لو كان أعصابي وحياتي ، وأنا غير نادم علي اختياري ... كانت حياتي عادية جدًا ، إلي أن جاء ذلك اليوم المشؤوم ، فمن غير توقع ، وحين كنت أتقدم للامتحانات في الجامعة ، انتهك رجال الأمن – كالعادة – حرمة الجامعة ، واقتادوني إلي سجن أمن الدولة ، وهناك .... لم أكن أتصور أن الإنسان مهما انحط وأسفَّ يمكن أن يصل إلي ذلك الدّرك السافل الذي لا يمكن أن تصل إليه وحوش غابات الكونغو ... كان التعذيب غاية في الشراسة والتمتع بهتك قيم الإنسان ، فإذا كان في هذا المجتمع مجرمون ، فأولئك هم المجرمون الحقيقيون فحاكموهم بدلاً من أن تحاكمونا .

كان يتصور أن القاضي سينفجر غضبًا ، ولكنه فوجئ بإنصات شديد من الحاضرين ، وبارتياح بدا في وجوههم ، وقال القاضي بهدوء : ولكنك متصل ببعض المسلحين .

أجاب : صلة صداقة قديمة ، لا صلة تنظيم ... لم أمارس العنف ، ولو كنت مقتنعًا به لمارسته ، ولما وجدتني أمامك الآن ، وأنا لا أقول هذا خوفاً منك ، فأنا لا أخاف منك ولا من غيرك ، ولكنها الحقيقة .

- وفكرة الهجوم علي أمن الدولة !؟ .

- كانت مجرد كلام ... صرخة في وجه الظلم والعجز .. كل الناس يصرخون ، وينتقدون بعنف .. وأنتم تعرفون ذلك ... ولا يوجد قانون في العالم يحاسب الإنسان علي شوارد فكره ، أو فلتة لسان في ساعة غيظ وقهر ... إلا إذا كان هذا القانون موجودًا هنا ! .
- لا أبدًا .
- اتفقنا إذن .

ابتسم القاضي وقال : أتحب أن تضيف شيئًا ؟ .

- كان في جعبتي الكثير ، ولكني أكتفي بأن أقول لكم : إن هذه الأرض إسلامية ، فتحها المسلمون بدمائهم ، ولن يقبل أحد بأن تصبح الدعوة إلي الإسلام فيها جريمة ، أو النشاط الإسلامي تطرفًا ، وأختم كلامي بقول شيخ الإسلام ابن تيميه – رحمه الله – : ما يصنع أعدائي بي – وأرجو أن لا تضعوا أنفسكم في موطن العداء لي – أنا جنتي وبستاني في صدري ، سجني خلوة ، ونفيي سياحة ، وقتلي شهادة ... وبالنسبة لي فالحكم بالإعدام أو السجن المؤبد أو البراءة ، كلها سواء ، ولكنها مسئوليتكم ، ولا تنسوا أنكم ستقفون يومًا بين يدي الله ، شئتم أم أبيتم ، فحاولوا إنقاذ أنفسكم .

ساد صمت وتأثر بعد تلك الكلمات ... لأول مرة منذ دخل السجن ، أحس بقوة الحق ، وجلاله ، وهيبته ، وروعة التحرر من الخوف ... ورأي بعينيه ثمرة ذلك : الإكبار ، والإعجاب منالجميع ... أمر لميكن في حسبانه ... قال القاضي وهو يهز رأسه :

- عد إلي مكانك .

كل شيء تغير في المحكمة ، وكل نفس تفاعلت مع الموقف بشكل أو بأخر ، الإخوة المنكمشون علي أنفسهم أحسوا بقوتهم ورفعوا رؤوسهم عاليًا ... القاضي ومن معه وعناصر الأمن أحسوا بصدقه واحترموه . كانت العيون الشاخصة إليه ، تفصح عما في الصدور من غيظة وإعجاب واقتناع .

انتهت الجلسة ، وأعيد السجناء إلي السجن ... وفي المهجع الخامس ، اجتمع سجناء المهجعين يستمعون إلي تفاصيل جلسة المحكمة ، وكان القادمون يتحدثون عن موقفه باعتزاز ، فانكمش علي نفسه حياء ، وخرج إلي المطبخ يتشاغل حتى انتهي الحديث عنه .

ظهرت شخصية جديدة بين السجانين ... الرقيب طاهر ، مجند شاب يؤدي الخدمة الإلزامية ، أقرب ما يكون إلي الطول والامتلاء والوسامة ، هو ابن أخ الرائد حسن رئيس الفرع ... انضم إلي مجموعة السجانين وكان رئيس نوبة ... شهد السجن في أيامه انفراجًا كبيرًا ... وكان يغض الطرف عن الكثير مما يهرّب للسجناء ، بل كان يقوم هو أحيانًا بتهريب الكتب والمعلومات من السجن وإليه ، وبالغ في تعاطفه مع المعتقلين ، حتى داخل الريب في سلوكه ... وقال أحدهم لابد أنه مدسوس علينا . فأجابه آخر : ملامحه، وحركاته ، واضطراباته عند تقديم مساعدة ، توحي بأنه رجل طيب .

- الحذر واجب .
- كلامك معقول .

أحيانًا كان يصلي معهم جماعة .. حقاً إن أمره مريب !؟ .

ثم بدأ في بعض الليالي يستدعي واحدًا من السجناء ، يختاره في نوبته ، ويسهر معه بعد منتصف الليل ، حيثينام السجانون ، ويتحدثان في كل موضوع ... وقد اختار جلساءه من الكبار والصغار ، واطمأن أكثر من سهر معه وحدثه إلي صدقه ، ووثق به ، ولكن هذا السلوك جعل الجدل يشتد حوله :

- لا ريب أنه مدسوس .
- بل إنه متعاطف وطيب .
- الله وحده يعلم حقيقته .

وتعرض طاهر لمراقبة شديدة ، واختبارات قاسية من السجناء دون أن يدري ، كلفوه بمهمات خطرة فأداها ، ولكن الجدل ازداد بشأنه .

- هذه أمور لا يفعلها إلا مدسوس .
- أو رجل من الإخوان .
- أيمكن أن يكون من الإخوان !؟
- ربما كان متعاطفاً .
- مستحيل .
- بل ممكن ... ممكن جدًا .

وكان قد وقع اختياره علي محمود ذات ليلة ، وتكرر اللقاء أكثر من مرة ، وقال طاهر : الحوار معك متعة حقيقية .

- شكرًا هذا من لطفك .

- بل هو الواقع .

انتهز الفرصة ليسأله : ما رأيك بالإخوان !؟ .

- شباب طيبون .

وكان يفكر في إثارة موضوع معه ، فقال :

- هل يستحقون السجن ؟ .

- لا .

قال وهو يبتسم :

- لماذا لا تقوم بعمل في سبيل الله .

- مثل ماذا !؟ .

وبين الجد والمزاح قال له :

- تهريب السجناء ...

ولم ينفعل طاهر ، بل رد ببرود وهو يبتسم : هذه مفاتيح السجن خذها ، واهربوا .

- هذا مستحيل ... لابد من خطة .

ابتسم طاهر ، وسرح بعيدًا ، وقال : حسنًا ، ضعوا الخطة التي تريدون ، وأنا جاهز .

في الصباح قال محمود لعادل : لقد طرحت علي طاهر فكرة الهرب من السجن ، فكان رد فعله غريبًا ... يبدو أنه يقبل الإقدام علي عمل من هذا النوع ! .

ابتسم عادل بهدوء ، وقال : هناك طبخة علي النار أوشكت أن تنضج ، فدع الأمر سرًا .

- عدنا إلي السرية من جديد ! .

- أمر لا مفر منه ، كما تري ..! .

كان الاستدعاء إلي المحكمة مختلفاً هذه المرة ، فقد جرت العادة أن يؤخذ السجناء علي دفعات ، والآن استدعي السبعة عشر سجينًا من المهجعين الخامس والسادس ، إضافة إلي الذين نقلوا إلي سجن القلعة من المهجع الثاني ... وقال سجان : استعدوا للنقل إلي سجن آخر . وكانت ساعة عناق ووداع بين الراحلين والباقين ، وكانت عبرات وغصص وشد علي الأيدي ، ودعاء بالتأييد والثبات ، وكلمات مفعمة بفيض عارم من المشاعر الإنسانية .. وبقدر ما كان وداع هؤلاء حزينًا ، بقدر ما كان لقاء الآخرين حارًا ، وإذا كان الوداع فاجعًا ، فما هو ذا لقاء بهيج يعقبه توًا ... إنها الحياة .. حزن ومسرة .. أو مسرة وحزن .. يتعاقبون طورًا ، ويمتزجان أحيانًا .

في المحكمة كانت الجلسة قصيرة جدًا ، ابتدأت وانتهت بكلام المدعي العام ، الذي عاد وكرر التهم نفسها التي رددها القاضي من قبل ، وطلب من رئيس المحكمة إنزال أقصي عقوبة بأولئك السجناء جميعًا . وفي غرفة الانتظار ، قال محمود لأحد أصدقائه الذين وجدوا أنفسهم في السجن دون أن يكون لهم علاقة بتنظيم : إني متفائل جدًا بأنكم ستخرجون براءة ، وتستأنفون حياتكم من جديد ، ونحن ندعو لكم بالتوفيق ، فادعوا لنا بالرحمات ... وتابع باسمًا ، ولكن إياكم والسياسة ...

ضحك الجميع ، وقال الرجل : لا يا شيخ ، لقد دخلت السياسة عظامنا بعد الاختلاط بالإخوان ...

- والشباب ، كيف نفسياتهم !؟ .

- كلهم بخير ، لقد تغير الجميع تمامًا ، وما عادوا يهابون شيئًا ، لقد نذرنا أرواحنا في سبيل الله .

- إنه تطور خطير ، لكنه طيب ...

أعيد السجناء إليسجنهم نفسه ، وتكرر لقاء حار مع الذين ودعوهم قبل ساعتين ، وكان فرح غامر ، مثلما يفرح المرء بشيء ثمين فقده فجأة ووجده فجأة . قال أحد السجناء : لقد أصبحنا أسرة واحدة ... ثم تابع متأثرًا : أنتم أصدقائي وحاضري ومستقبلي . وقال آخر : أرجو من الله ألا نفترق حتى الفرج الشامل أو الشهادة .

وتوالت الأنباء عن مجازر ارتكبتها السلطة في كثير من المدن والقرى ، وكلانت وسائل الإعلام تردد : أوضاعنا الداخلية مستقرة ، وسجوننا جدرانها بيضاء ، لا يدخلها إلا المجرمون ... وفي الوقت نفسه تشن الحملات علي بعض الأنظمة التي امتلأت سجونها بالأبرياء المنكوبين والقتل الجماعي . ولم يجد السجناء مخرجًا من ذلك المأزق ، إلا بالحديث عن الهرب . وقال محمود : مهما تكن الوسيلة والنتيجة فلابد من الهرب . وتساءل في نفسه : أهو أمر ممكن !؟ أم هو تعبير عن اليأس !؟ .

انطلق مندفعًا كالسهم من باب السجن ... والسور الذي كان يبلغ ارتفاعه مترين ، لم يكن من الصعب عليه أن يقفز من فوقه بعدما وصل إلي لياقة بدنية عالية بعمل تدريبات شاقة في الشهرين الماضيين ، وتبعه السجانون والحراس في الخارج ، ولكنه لم يكترث ، أمروه بالتوقف فأمعن في طريقه ، أطلقوا عليه النار من كل مكان ، فلم يكن يبالي من أين يعبر الرصاص ، وقطع الشارع الخارجي من بين السيارات ، وظل يجري مسرعًا ، وهم يركضون وراءه ، والمسافة بينه

وبينهم تتسع ... أوقف سيارة أجرة ، وقال للسائق : انطلق بأسرع ما تستطيع ، وفي مكان مزدحم فتح الباب وهرب ، واختار شارعًا جانبيًا فاتجه نحوه ، وراح يدخل في أحياء وأزقة متشعبة ، حتى اطمأن إلي أنه غاب عن عيونهم ، وأنهم لن يدركوه ، وقال في نفسه : البحث عن مأوى لن يكون صعبًا هنا ، فعندي الكثير من الأصدقاء ، وظل ماشيًا بحذر واطمئنان ونشوة ، حتى ربت شخص ما علي كتفه ، فاجتاحه ذعر مفاجئ ، وحاول أن يتبين ملامحه بلا جدوى ، فصاح : من !؟ وسمع صوتًا يقول له : محمود .. محمود .. قم ، فقد اقترب الفجر .

ونهض فوجد الأستاذ عادل يوقظه للوضوء والصلاة . فلما قص عليه ما رأي في الحلم ، قال عادل : فأل خير إن شاء الله . وقال آخر : إنه انعكاس لأحلام وهموم . وقال ثالث : أضغاث أحلام نرجو أن تتحول إلي واقع . وأردف محمود : لقد بدأ يعاودني هذا الحلم كثيرًا ، مع اختلاف في الجزئيات والتفاصيل ... ولكنني أنجو دائمًا . وأحيانًا أجدني ملتحقاً بالمجاهدين .

- إنك دائم التفكير في هذا الأمر .

الشيء الجديد المثير كان في تعدد اللقاءات بين السجان الرقيب طاهر ، وكل من أمين أصفر وعدنان شيخوني ... ، كانت اللقاءات شبه سرية ، تتم في المطبخ ، دون أن يعلم بقية السجناء بتفاصيل ما يدور فيها ، إلا التخمين بأن هناك خطة للهرب .

بعد يومين وقفوا جميعًا في قفص المحكمة ، ومعهم الشيخ محمد خير الذي أُحضر من سجن القلعة ، وكان هناك أربعة محامين ، يتكلمون بالتناوب ، يتناول كل منهم عددًا من القضايا ، وكان محامي الدفاع عن محمود نعيم والشيخ محمد خير رجلاً في متوسط العمل يدعي المهلب الصالح ، فلما تكلم أنشأ يخطب خطبة طويلة ، يتلوها صفحة بعد صفحة لمدة ثلث الساعة ، وقد ظهر الامتعاض في وجوه الحاضرين بدءًا من القاضي وانتهاءً بالسجناء ، فقد أشاد المحامي في مرافعته بالسيد الرئيس ، وأطنب له في المديح ، ونبه إلي أنه الرجل الصلب الوحيد في المنطقة ، الذي يتصدي للإمبريالية الأمريكية ومخططاتها ، وللصهيونية العالمية وأهدافها ، ولعملاء كامب ديفيد من العرب ، وأن تلك القوى الرهيبة العالمية ، لما عجزت عن مواجهة الرئيس المناضل البطل ، فإنها قامت بتسخير الدين الإسلامي الحنيف ، واستئجار قيادات عميلة ، واستغلال حماسة الشباب المسلم ، وتوريطهم في عصابات مسلحة دموية هدفها التخريب والفتن والقضاء علي الثورة الرائدة وقائدها المظفر ... وختم خطابه بقوله : ولأن هؤلاء الشباب – يا سيدي القاضي ، ويا حضرات المستشارين المحترمين – شباب مغرر بهم ، فأنا ألتمس لهم من عدالتكم الموقرة تخفيف العقوبات عنهم إلي أدني حد يسمح به القانون .

وشب حريق في القفص ... حريق سري في دم كل سجين ، فرفع الشيخ محمد خير يده طالبًا الإذن له بالكلام ، وأشار له القاضي بالموافقة ، فقال :

أيها السادة : كيف يدافع عنا محامٍ لا نعرفه ولا يعرفنا ، ولم يلتق بنا ، ولم يستمع إلينا !؟ . وأردف بسخرية : ثم لو أنه اتصل بنا لكنا أعطيناه أجره ليقوم بواجبه علي نحو أفضل .

وقال محمود : أشكر السيد محامي الدفاع علي خطبته الحماسية ، وإن كنت اتمني لو أنه أعفي نفسه وأعفانا من سماعها ، لأن أقل ما يقالفيها : إنها كلام جرائد وإذاعة ، مما لم يعد له تأثير في هذه الأيام ، بل أصبح الناس يمجّونه ... ثم إن حضرة المحامي وقف يدافع عن الرئيس مع أنه غير متهم هنا ، وكان الأولي به أن يدافع عن موكليه دفاعًا مناسبًا ... أما عن دفاعه الذي تقدم به ، فأنا أرفضه ... ونحن – والحمد لله – مسلمون واعون مختارون طريقنا علي بصيرة ، ولسنا مضللين ولا مخدوعين ولا أغرارًا .

قال المحامي مباشرة : وهو يتلقي نظرة شماتة من القاضي : أنا أسحب دفاعي عن هؤلاء .

وصاح القاضي : رفعت الجلسة .

قال محمود لعادل في الطريق إلي السجن : الأحكام ستصدر في الجلسة القادمة حسب كلام القاضي ، وأنا موطن نفسي لأقسي الأحكام ، ولكن شعورًا داخليًا يحدثنيعن فرج قريب ... لا أدري لماذا !؟ مجرد إحساس أرجو أن لا يكون كاذبًا ...

رد عادل وهو يهز رأسه : الأمر لله من قبل ومن بعد .

أردف محمود : الإعدام شهادة ، والسجن المؤبد لن يضير : لأن الظلم لا يعيش طويلاً ، والحكم بخمس سنوات يمنحنا الفرصة لحفظ القرآن الكريم ومجموعة طيبة من الأحاديث النبوية ، وإذا خرجنا من السجن بعد سنة من دخوله ، نكون قد خرجنا بتجربة جيدة في الحياة . ابتسم عادل ، وهز رأسه علامة الموافقة ، دون أن ينبس ببنت شفه .

مضي عليه في السجن أحد عشر شهرًا ... في هذه الليلة فوجئ الجميع باضطراب شديد وضوضاء ، وجلبة في حركات السجانين ، وأصواتهم ، كانت الساعة تشير إلي الثالثة فجرًا حين فتح الباب سجان يقول :

- جهزوا أمتعتكم وأغراضكم جميعًا .
- لماذا !؟ .
- لا نعلم .

قالسجين إما أن هناك مجزرة جماعية تنتظرنا ، أو أن انقلابًا قد حصل وسيكون الإفراج عنا هو البلاغ رقم ٢ . مضت أربع ساعات في انتظار مبهم ، وتحليلات متناقضة ، وتخمينات بلا أساس ، وأخيرًا ، قال السجان : ستنتقلون إلي سجن

القلعة . سرت موجة من تفاؤل بين السجناء ، وقال عادل : إنه أرحم وأفضل من هذا السجن . وراحوا ينادون السجناء بأسمائهم حتى بلغ العدد ما يربو علي الأربعين منهم ، وبقي في المهجعين الخامس والسادس سبعة عشر سجينًا هم الذين سيخضعون للمحاكمة . وكان وداع شكلي ، سريع ، لأن الباقين ظنوا بأنهم سيلحقون بإخوانهم بعد قليل ... ولكن ذلك لم يتم ، فبعد ساعات قال سجان :

- فكوا أمتعتكم فأنتم باقون هنا ...

سأله عادل :

- ألن ننتقل معهم !؟ .
- لا .
- غير معقول .
- هذه هي الأوامر .
- والشباب أين ذهبوا بهم !؟ .
- لا أدري .

في المساء جاء طاهر مكفهر الوجه ، بادي العبوس ، تنطق عيناه بالقهر والألم ... سأله محمود :

- خير إن شاء الله ، ما الأمر !؟ .

أجاب بلسان مثقل بالكارثة :

- لقد صار الشباب في سجن تدمر .
- السجن الصحراوي الرهيب !؟ .
- نعم .

وأحس كل سجين بأن صاعقة قد نزلت برأسه .

بدأت الأمور تجري علي نحو مثير ...

كان اليوم هو السبت ، وقد بدا الرقيب السجان طاهر قلقًا ... قال لمحمود :

إنها فرصتكم الأخيرة ... فأنتم أمام احتمالين ، إما أن يذهبوا بكم إلي السجن الصحراوي قريبًا ، أو أن تذهبوا مساء الأربعاء إلي المحكمة لتلقي أقسي الأحكام ... وعند صدور الحكم ، فلن تعودوا إلي هنا ، بل ستنقلون مباشرة إلي سجن آخر ... وفي كلتا الحالتين فإن فرصة تحرركم تكون قد أفلتت منا ... أمامنا أيام معدودة فقط .

بعد ساعة ، وفي لقاء طويل مع أمين ، قال طاهر : موعدنا يوم الاثنين . قال أمين : نحن مستعدون .. وقال طاهر : والشباب الذين سيتولون إيواءكم في الخارج مستعدون ...

كانت الخطة مرسومة بدقة ، وجاهزة للتنفيذ تمامًا وكل سجين عرف دوره المحدد ... في مساء الاثنين جلس الرقيب طاهر أمام باب السجن مع السجانين الأربعة : أبو محمد وأبو شهاب ، وسعدون ، وفواز ... قام طاهر وجهز إبريقًا من مشروب (الميلو) بالحليب ... ووضع فيه المخدر ... قدمه إليهم احتفاءً بخطوبته كما قال ... عاد طاهر يقول لأمين : شرب اثنان منهم الشراب : أبو شهاب وسعدون ، ولم يسقه أبو محمد ولا فواز ...

وتابع : أما أبو محمد ، فإنه عادة ما يذهب ويبيت في بيته ... إنه رب أسرة ، ونحن نغطي غيابه ... وأما فواز فهو مصيبة . قال أمين : نعتقله !؟ . أجابه طاهر : الأمر صعب جدًا ... لو صرخ صوتًا واحدًا لنبه الآخرين ، وأفسد عملنا ... وانتهينا جميعًا إلي الموت ... مرت نصف ساعة من القلق والحيرة ... مشكلة لا حل لها ... أمر لم يكن بالحسبان ... كان السجناء صائمين ... أذن المغرب فأفطروا ، ودعوا الله باضطرار ... بعد قليل حدث ما يشبه المعجزة .. كان القدر يقول كلمته بوضوح حين جاء فواز يطلب الدكتور مالك ...

أجابه الدكتور : نعم ؟ .

فواز : لابد أن لديك حبة صداع ... أحس بصداع برأسي ...

هز الدكتور مالك رأسه : بالتأكيد ... لكني الآن أقوم بتنظيف الأطباق عد إلي بعد خمس دقائق ... عاد فواز بعد خمس دقائق ... كان الدكتور قد حشا له المخدر في كبسولة عادية بعد ما أفرغها من محتواها الأصلي ... تناول فواز حبة الدواء وعاد بعد قليل يقول للدكتور :

- أحس بثقل في رأسي ...
- استرح قليلاً في السرير ... وحاول الإغفاء لساعة أو ساعتين ، وحين تصحو ستجد الأمور علي ما يرام ...

في العاشرة ليلاً كان أبو محمد ينسل من السجن إلي بيته ، والسجانون الثلاثة الآخرون : فواز وسعدون وأبو شهاب يغطون في نوم عميق ... في الثانية عشر ليلاً بدأ تنفيذ الخطة التي رسمت بإحكام بالغ .. اتصل طاهر بفرع الحلبوني .

- ألو .
- نعم .

- أبو أحمد موجود ؟ .
- تفضل .

تناول المساعد أبو أحمد ، مدير الفرع الهاتف :

- نعم .
- أنا طاهر ..
- أهلاً بك ..
- لدي مريض ...
- دعه إلي الصباح .
- حالته خطيرة .. إنه في حالة إغماء تام .. وتشنج .. و ..
- طاهر .. الوقت منتصف الليل ... دعه إلي الصباح ...
- كما تريد ... لكني أكون قد أخليت مسئوليتي ...

حين سمع أبو أحمد بالمسؤولية ، انتفض قائلاً :

- كما تريد ... لكني .. آه... طيب ... حسنًا ... إذا كنت تري الأمر خطيرًا إلي هذا الحد ، فسأرسل لك السيارة حالاً ... لكن انتبه ، كن يقظًا ، ورافقه بنفسك إلي المستشفي ..
- حاضر .

بعد نصف الساعة كانت السيارة الجيب تجتاز البوابة الرئيسية للمبني ، لتقف أمام باب السجن ... طلب طاهر من العنصرين القادمين أن يساعداه في حمل السجين إلي السيارة ... دخل العنصران بحذر وتردد ... سارا في الممر الضيق الذي يفضي في نهايته إلي باب المهجع الثالث حيث يتمدد المريض ... بينما كان ثلاثة سجناء يتسللون من خلفهم قادمين من المهجع المقابل في لباس النوم ، في هيئة المتطفلين علي ما يجري ... أصبح العنصران بين فكي كماشة ... نادي أحدهم بالسجناء من خلفه ، عودوا إلي أماكنكم ... في لمح البصر انقض اثنان من السجناء علي العنصرين حيث تم اعتقالهما وتقييدهما وإدخالهما إلي المهجع وحقنهما بالمخدر ... وفي دقيقة واحدة بدل السجناء ملابسهم وخرجوا بترتيب ونظام من باب السجن ، كأنهم ذاهبون في استدعاء للتحقيق ..؟ وحدثت أخطاء قاتلة وأخطاء مضحكة في تلك اللحظات ، ولكن الله سلّم .

لم يكن المشهد عاديًا بالنسبة للعناصر الآخرين المرابطين عند البوابة الخارجية والذين لا يبعدون أكثر من خمسين مترًا عن باب السجن ... لكنهم بدوا ذاهلين مسلوبي التفكير والإرادة ... مرة أخري القدر يقول كلمته بوضوح .. انطلقت السيارة تنوء بضعف حمولتها باتجاه البوابة الرئيسية ...

وجه الرقيب طاهر المعروف جيدًا هو الذي جعلهم يفتحون البوابة أمام السيارة لتخرج ، دون أن يكون لديهم الظن أو الوقت لملاحظة أن العنصرين الذين دخلا لم يخرجا وإنما خرج مكانهما سجينان ، أحدهما يقود السيارة والآخر إلي جانبه ، وطاهر إلي اليمين من جهة النافذة ... أما في الكبين الخلفي المغلق فقد تكدس خمسة عشر سجينًا ؟! . ما إن خرجت السيارة من باب السجن حتى شرع بعض السجناء بالتكبير ... وتم إسكاتهم بسرعة .. انطلقت السيارة في شوارع العاصمة ، تتجاوز حتى إشارات المرور الحمراء ... وفي أماكن محددة كان بعضالإخوة ينتظرون بسياراتهم في الظلام ... ترك السجناء الهاربون سيارة الجيب ، وانتقلوا إلي السيارات الأخرى الخاصة التي ذهبت بكل مجموعة إلي مخبأ جاهز أمين ...

قبل أذان الفجر كان محمود وأصحابه مختبئين في بيت في إحدى ضواحي العاصمة ، في يقظة تامة ، يصلون التهجد ... يطيلون السجود ... يحمدون الله من أعماق قلوبهم ... في تلك الليلة التي لم يعرفوا النوم فيها من شدة الفرح ... نهاية أغرب من الخيال ... أذن الصبح فصلوا الفجر ... وقرؤوا الأدعية المأثورة ، وشيئًا من القرآن الكريم ...

قال عادل : لقد منّ الله علينا بالفرج من حيث لا نحتسب ... وهيأ لنا الأسباب المؤدية إليه : السجان طاهر ... والإخوة الذين تكرموا بإيوائنا من غير أن يكون بيننا وبينهم سابق معرفة ، ما ما في الأمر من خطر عظيم عليهم ... فلنحمد الله أولاً ، ولندع لمن بقي من إخواننا بالفرج العاجل ... ستكون أمورنا علي ما يرام بإذن الله . وقال آخر : لقد طويت صفحة السجن ... وفتحت صفحة جديدة ... ما الذي يجب عمله الآن ، وما الذي يمكن أن نفعله ؟ نلتحق بالمجاهدين !؟ أم نخرج من البلد !؟ . أجاب عادل : سيكون لدينا وقت متسع للحديث في هذه الأمور ، بعد تناول الفطور إن شاء الله .

وقال آخر لمحمود : يجب أن تكتب قصة السجن وعذابنا فيه ، وقصة الهرب وعجائب اللطف الرباني فيها ... هذه أمور يجب أن لا تضيع .. يجب أن يعرفها الناس .. أجاب محمود ، يكفي أن رب الناس يعلمها جيدًا ... ومع ذلك ، فأنا أشاطرك الرأي ... سأكتب ... سأكتب إن شاء الله ، إن كان في الأجل بقية . وقاموا يعدون الفطور وهم يتنسمون لأول مرة – منذ عام – أنسام الحرية ... قال محمود وهو يحمل إبريق الشاي في يد ، وطبق الزيتون في يد أخري : حقًا إن الحرية هي الحياة ، أما هذه السجون فهي أسوأ اختراع بشري ، وستظل وصمة عار في وجه الإنسانية حتى تسوّى بالتراب .

في ضحى اليوم التالي ، كانت أم محمود تدخل إدارة الفرع من أجل زيارة ابنها ... وكانت تحمل – كعادتها – ما صنعته بيديها من أشهي أنواع الأطعمة ... وكان يسود المكان القلق والتوتر والحركة العصبية ، وكأن القيامة قامت ... حينما اقتربت من البوابة الرئيسية سألها أحد العناصر :

- نعم ؟ .
- أريد زيارة ابني ..
- الزيارة ممنوعة ..
- كيف ... لقد قطعت مسافة بعيدة حتى وصلت إلي هنا ..
- قلت لك : الزيارة ممنوعة ..
- عندي موعد سابق منذ شهرين .
- ممنوع .
- الله يرضي عليك يا ابني ... دعني أكلم المسؤول ..
- ممنوع .

أحست بضيق شديد ... تمتمت : إنا لله وإنا إليه راجعون ... ثم اقتربت وقالت :

- طيب ... إذن أوصلوا له هذه الأغراض ..
- ممنوع دخول الأغراض ..
- إنها بعض أطباق الطعام ...
- ممنوع .
- حتى الطعام ممنوع !؟ ما الذي جري .. أخبرني يا ابني ..

في هذه الأثناء كان ضابط برتبة ملازم يمر ... شاهد الموقف .. نادي عليها :

- نعم ... ماذا تريد الحاجة !؟ .
- زيارة ...
- الزيارة ممنوعة الآن ..
- عندي موعد ..
- حتى ولو ...
- حتى متى ..!؟ .
- حتى إشعار آخر ..

عادت تقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ... وحملت ما معها من متاع ، وأدارت ظهرها ، وجرّت ولديها ، وهمت بالانصراف ... نادي الضابط عليها :

- يا حاجة ...
- نعم ...
- تعالي ما اسم ابنك !؟ .
- محمود نعيم .

تغير لونه فجأة ...

قالت :

- خير ..؟! .

اقترب منها وهمس بتردد :

- اذهبي من هنا حالاً ... انجي بنفسك وولديك ...
- خير ... ؟! .
- ابنك هرب أمس من السجن ، مع عدد من أصحابه ...

لم تدعه ينتهي من حديثه ... أدارت ظهرها وانصرفت ، استقلت أول سيارة أجرت مرت بها ... كأنها هي الأخرى هاربة من السجن ... أحست بفرح لا يوصف ، وبقلق كبير ... بدأ قلبها يدق بسرعة ... ضمت ولديها إليها بحنان كبير ... كأنها تخاف أن يفلتا منها ... وعادت مسافرة إلي المدينة ... وهي تقول في سرها :

أرجو الله الذي فرّج عنه أن يجمعني به ، لتقر عيناي بلقائه ...

وذلك ما كان ...

انتهت ...